

كائنات الورق

مالك عبيد

قصص. Fiction

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

كـائنـات الورق

كتاب قصصي



مالك عبيد



مالك عبيد/ عربي مقيم في دبي من مواليد عام 1975، خريج جامعة الكويت - كلية الآداب - قسم الإعلام تخصص إذاعة وتلفزيون. وهو حاصل على دبلوم عالي في الفلسفة من جامعة الكويت، وله العديد من المشاركات الأدبية والفكرية في الصحف الخليجية.

قصص

....

كائنات الورق

مالك عبيد

الطبعة الأولى أكتوبر 2010

رقم الايداع: 20904- 2010

الناشر
محمد البعلي

المستشار الفني
أحمد الزغبي



www.sefsafa.com
sefsafa09@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
٥ ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

كائنات الورق

قصص

الإهداء:

إلى ليل الكتابة الطويل
والمزدحم بالرؤى الزائفة
والقلق... إلى كائناته ووجه أمل
لايغيب.... أتوجه إليه بالشموع.

جهتهم.....!

... جلست منتظرًا موعد الطائرة، ليس هناك من فسحة تكفي لوصف المكان وحركته المحمومة، المسافرون وقد أثقلهم الانتظار والملل، كلهم كانوا هناك دون أن أميزهم، أشعر بأرواحهم ها هنا تحلّق من حولي باحثةً عن خلاص كطائرة من ورق.

كانت هي... إلى جهة ما من جسدي تجلس على زمن أكبر من حقيقته، تحمل أوراقًا تشبهها كثيرًا، لها من السنين ما يفوق انكسار الأمل وما يحمله جسدها من آثار القلق التي لا تُمحى، لكنها برغم كل شيء؛ لا تزال تحمل لمحة من جمالٍ أصيلٍ غير مصطنع. بسيطةٌ في كل شيء هي، غير أنها لا تحملَ من دَلائل على أنها مرتبة؛ حديثها كان مبعثرًا، وتختلط به كلمات من لغات أخرى، كذلك صمتها، رأيت كل الكون الفسيح بعينيها اللتين يشعّ منهما لون غروب ما، ومحيطات مدلهمة.

– ليتني أبحر.!!

ابتسمت بداخلي... كيف تأخر لقاؤنا؟! فلو كنت التقيتها في سن مبكرة؛ لكان الحدث لائقًا كي نقتسم أنا وإياها عشاءنا الأخير، تركت أوراقها وغابت في زحام محموم؛ بعد أن تبسمت بما يفي ويوحي بعودتها.

جاء نداء الطائرة سريعًا... وكثيفًا...

لم تعد.

أيقنت بأنها إن غادرت فلن تعود.

كنت الشخص الأخير الذي ركب الطائرة بعد طول الانتظار... أخذت كل شيء مرددًا:

–... سنلتقي ذات يومٍ أيتها الذاكرة!

حديث عيسى ورائحة الصوف!!

1

الضوء يا بني.. زمن الحقيقة
خيالنا نواة الوهم التي تنشطر سريعًا
الرمال.. لغة مبهمة ومساحة لا تضيق بحقيقة...
حرة !!

هكذا كان للمدى المتباعد رنينٌ خرافيّ، ليس لفطنةٍ بكر – وإن تجسدت، رسم خارطة أقدارها أملاً بالعبور دون جروح قد تطال أقدامها التي لم تنتعل الزمن الحقيقي، حدث كل شيء منذ أن أسدلت الشمس على وهجها مسافة الانطفاء، ولم تعد لديها رغبة في ترك دفء يحفظ لجدران كهوف الصفيح المبعثرة على سفح الزمن المر من جهة الغرب، ما يوحي بعودة ضوئها من جديد... وربما أكثر!

هناك...!

بعد أن علق صوتهم بأحشائهم، وبقى ملتصقًا بها كصدأ لا يزيله إلا الانصهار من جديد عودًا على بدء!! انكشف الستار آنذاك بثمن غير بخس، فكان الحدث خير معبر عن وجود تلك الجموع المرتبكة بوجودها الفطري، مرة أخرى يعيد التاريخ لهم حضوره فيمنحهم بداية جديدةً وسقوطًا عنيفًا، حين جاء مفاجئًا إلى داخل تلك البئر المتهالكة أو"الدحل الجنوبي "– كما يطلق عليه أبناء تلك القرية، فقد سُمّي بهذا الاسم لسببين؛ أولهما: وقوعه إلى جهة الجنوب من قريتهم؛ وثانيهما: التزامهم بما أورثهم إياه آباؤهم وأمهاتهم من موروث مقدس، ليس له من العمق ما يفوق عمق

تلك البئر، فجميعهم لا يعرفون عنه أكثر من رواية قديمة يتحدث عنها سكان القرية، وخصوصًا نساءها؛ اللواتي يحفظنها شأنهن شأن النساء المولعات بما يمكن أن يشغل فراغ أيامهن الطويلة، فيتجاوز بهن ثقل الزمن...

— يمه!

— سم يا وليدي!

— ليه الناس تتبرك بمي الدحل الجنوبي؟

— يا وليدي.. لأن المي اللي فيه مبروكة ما تخلص، هذا الدحل حافرينه الملايكة.

— وشلون؟

— مرت سنين على الناس ممحلة موتت حلال الناس، ولما ضاقت بهم الوسيعة ما كان لهم حيلة غير "السيد"؛ راحوا له وكان يصلي الصفرة، و قالوا له: حنا داخلين عليك تدعي الله ينزل المطر، ودعا الله إن الدنيا تمطر وسمع الله دعاه وأمطرت، وظلت الدنيا تمطر ثلاثة أيام، بعدها وقف المطر، وكانت الناس مهي عارفة وين السيد، يسألون أهله ويقولن مشغول مع ناس جوه لابسين ثياب بيضا، بعد صلاة هذاك اليوم خذوه معهم وغاب. كان الدحل على حد خرابة قديمة تسكنها كلبة جربا تنبح بصوتٍ عالي، ويوم راح الناس هناك والا يلقون الدحل محفور بأمر الله، وما حدًا عرف وشلون انحفر، بس النّاس– وأنا أمك– عرفت بعدين إن السيد والملايكة اللي كانوا معاه هم اللي حفروا البير للناس. الله يحميهم ويستر عليهم وعلى عويلهم والله، لولاهم كانت الناس ماتت من الظما.

— طيب وشلون أصير أنا سيد؟

— هذا جده نبي.. أنت جدك مهو مثل جده.

— يعني إذا جدي مهو نبي.. ما أقدر أصير سيد؟!!

- لا!

ليس لهذا الحديث الذي دار بين عيسى وأمه من تاريخ يمنحه مكانًا بارزًا بين غيره من الأحاديث التي تمتلئ بها سماء تلك القرية، التي تحمل من جينات القرى الأخرى الكثير، تتراكم بين أزقتها- كغيرها- كثبان اجتماعية كثيفة؛ تجعل من السير فيها أمرًا خطيرًا لا تُؤمن له نهاية؛ لأن القرى تعتمد عادة على مشاجب خاصة لتعليق عباءات الشرف والعلو، تأخذ بعين الاعتبار البعد الاقتصادي أساسًا يؤكد مسألة التمايز الاجتماعي باعتباره وسيلة فاعلة لجني الأرباح، فلا أكثر من بيع الحاجة طريقة ذكية لابتزاز الرغبة، وهنا يكمن السحر، و"السيد" هنا بيدق أساسي لا يمكن التنازل عنه في لعبة الشطرنج الاجتماعية التي تحكم القرى، ودليل واضح يجسد الإقطاع بشكله الهلامي، فلا يكتسب الصلاح وفقًا لمقاييس الواقع، وإنما وفقًا لمعطيات أخرى لا تأتي إلا بالتوارث عن نسب عريق كنسب الأنبياء.

كانت تلك التفاصيل الأمر الذي ساهم في إنضاج نسيج حكاية "الدحل الجنوبي"؛ فدفع الناس بعد تلك السجدة ثمنًا يفوق انتظار فصل الشتاء القادم بالمطر - كما تجري طبيعة المناخ الذي تقطن ضمنه تلك القرية. تشابهت السنين بمرورها على ذلك الدحل، فأفسدت الرياح المزمنة - الهبوب - مياهه، بعد أن أثقلتها الأتربة المتطايرة عبر المسافات؛ فهجر الناس وحله، فأخذ نجم حكاياته وما نُسج عليها من أساطيره بالأفول زمنًا طويلًا، تغيرت خلاله ملامح المكان كثيرًا، غير أن للأساطير - أيضًا - شهوتها الخالدة، التي تصنع لها أنبياء ومريدين؛ يعيدون لجسدها الميت روحا، وكان "عيسى" إحدى تلك الصنائع وأهمها في تلك القرية.
بعد زمن من ذلك الحديث الذي دار فيما بين "عيسى" وأمه؛

جرت الرياح بغير الاتجاه الذي كانت تجري عليه في هبوبها على تلك البئر؛ فقد أخذت تتسع فوهة تلك البئر لأكثر من مياه الأمطار الآسنة.. ما إن علا نباح كلبة أخرى! فأصبحت تلك البئرالهرمة مبعث حياة جديدة أكثر عنفوانًا وشبابًا، ليس لذاكرة الصفيح أن تدرك سرها، حين يأتي على هيئة طفل يتيم عبث بأقداره حد الممل؛ فسقط في غيابة تلك البئر، وكانت دعابته مهمة أخيرة تليق بمقامه صانعًا فذًا يمتلك النبوءة.

المشهد ليس أكثر بلاغة من ظلام محيط، وقطرات ماء تنتثر بين لحظة وأخرى جراء سقوط متأخر لبعض الأتربة، وكتل من الطين؛ كلما اهتز بجسد "عيسى" الحبل الذي علق بقدمه. كان يهتز مثل بندول الساعة، ورأسه إلى الأسفل.. غير قادر على الحركة أو الصراخ.

ظل "عيسى" معلقًا هكذا حتى قُضي الأمر؛ فرفع في صباح اليوم التالي جسدًا باردًا لا تتسع خلاياه إلى روح الله، بعد أن استدلت عليه تلك الكلبة التي كانت تسكن الخرابة المجاورة للدحل، والتي كانت تخصّ جارهم العجوز الذي توفى قبل أيام من لحظة الاكتشاف العظيم تلك. أشارت تلك الكلبة بنباحها إليه بأنه "عيسى" ذاته، لكنه قد صلب نفسه هذه المرة دون أن يترك تحت وسادته سببًا واضحًا، عشق وهمه فكان الوهم خطيئة لا بد له من أن يبحث عن الخلاص منها في حياته القليلة، لم ينتبه إلى أن للوهم سطوعاً أكثر قدرة على المضي في عين طفل صغير من ظل الأب المفتقد.

– ألسنا هكذا.. يهالنا خيال الأب صغارًا؛ فنظل ممعنين النظر فيه، ونتلصص على تفاصيله الجسدية محاولين إيجاد سمة التمايز التي تجعل من الأب الذي يخصنا أكثر ضوءًا من غيره من

الرجال!!

– كلكم صادقون، فكل واحد منكم يملك أفضل أب في هذه الدنيا.. لدرجة أن التفكير باستبداله أمر لا يَرد.

"عيسى" لم يكن كذلك، إنما سهم طائش بيتمه، أعقد من أن يفهم، خصوصًا إن كان ذا أب لم يمت، أعلن غيبة كبرى غير مبررة فحسب، لذلك؛ فقط كان غيابه بلا نهاية، كصلاته المستمرة، التي كان يعرف بها لدرجة أن رياح تذكُرِها كانت تثير غبار سخرية اجتماعية قاسية لا يحتملها جسد "عيسى". أرته أمه ذات حين صورة مهترئة لوالده الغائب؛ بعد أن ألحّ عليها كثيرًا، فوجده كائنًا ورقيًا لا يحمل وجهه أكثر من لوني الذاكرة، هكذا استوعب أقداره كطفل مشاغب أراد أن يغير من جغرافيا حياته، غير أن الوقت كان أشد عجزًا عن أن يمنحه$– حين استقر به المقام في داخل تلك البئر – المساحة الكافية لقافلة سيارة تلتقطه في طريقها، أو تسمع صوته الذي حشرجه الخوف،$حيث انتهى به الأمر، بعد أن صدق حكايته التي صنعها عن الجن الذي يقطن تلك البئر؛ فوجده الناس بعد ليلة طويلة، جسدًا باردًا لا تهزه الحياة.

يقال إنه ذهب في تلك الليلة يبحث عن ذلك المخلوق الذي اختلقه للأطفال من أقرانه؛ لعله يجده حقيقة على الأرض، غير أن نبوءته التي ذهبت به إلى هناك لم تعد به إلى أمه، فكان نبيًا بحجم جسده الغض، وفي الرواية الأخرى شيء آخر يعزز من البناء الاجتماعي في تلك القرية، لم يكن من بين قاطني تلك البقعة الصدئة شخص يمتلك الرغبة في تجاوز وعيه الذي أسر بأن ذلك الطفل الشقي (شوّر) به السيد بعد أن سخر من أنه أعور فقتله؛ لأن الوهم هو أن تضع لأقدار الحياة أسبابها.

كثرت روايات سكان الصفيح على هامش كل تلك الفوضى، التي تركتها الحادثة، وتضاربت واختلطت بسبب تقاسم أدوار البطولة، فكان من بين العديد من سكان ذلك الصفيح من يحاول أن يجد في الحدث الأخير فرصة ليثبت أنه بمعرفة أكبر تميزه عن غيره، عسى أن يحصد من خلالها الجلوس لساعة على كرسي الصدارة والاهتمام، هذا هو الهدف حتى إن أدت المنافسة إلى خدش جسد الشرف بين لحظة وأخرى، وكان في مقدمة كل تلك المنافسة "السيد" ذاته الذي وجد في الحدث فرصة لأن يعزز من المكانة الاجتماعية التي اغتصبها له القدر، وليس في ذلك من أمر غريب؛ اذ أن الحقيقة أكبر من أن يدرك تفاصيلها بشر ينامون وأيديهم تمسك بأعضائهم التناسلية!!!

فلزمن تلك المخلوقات البشرية لزوجة خانقة، وعطش خرافي تخفيه أتربة صدورهم الداكنة تحت غطاء ليل ماجن، وإلى أن يحين بزوغ فجر جديد، ثمة أمر آخر؛ حيث تقتحم الزرقة ستر كل شيء دون إذن مسبق؛ فتتحول الحياة إلى ارتباك مستمر، وفي تلك اللحظة يصبح وجه الحياة أكثر جفافًا، خصوصًا عندما تنتشر على ملامحه القاحلة - أصلًا - بثور آدمية؛ تجعلها أكثر سمرة مما هي عليه بالفعل.

أخذ منهم السجال المرتبك بين رياح الجنوب وبين الشمال مأخذًا؛ يطيل من وقوفهم بين اليأس من المستقبل تارة؛ والأمل بعودة الماضي المقدس تارة أخرى، بعد أن تركوا لذلك السجال نحت تضاريس الحلم في جماجمهم؛ فتحول الخوف إلى سمة مشتركة، وعاد جذع المكان أكثر خواءً من عقول قاطنيه.

2

..... وعادت الظلمة من جديد تقتحم جغرافيا العشواء، وتختلط بجلبتها.. تلك العشواء التي يقطنها من طال أجسادهم الخدر كسمة تدل على انتمائهم المطلق إلى النقطة الأولى لما قبل البدء بـ "آدم"، حين كان لا يجد غير الوهم ليحدثه. كان هو هبة الفراغ للفراغ؛ حتى جعل من جنته أرضًا لا يحتمل الشمس فيها جسده إلا بعورة يخصف عليها من أوراق الشجر، ولم يلتفت أحد إلى أن الخلود كان بالاقتراب من تلك الشجرة وليس بالامتناع عنها!! أما إبليس فلعله كان قد أذنب بأن أفشى سر الخلود لآدم، غير أنه لم يكذب بما قال؛ لأن الخطيئة التي ارتكبها ذلك الـ آدم بأن اقترب من تلك الشجرة، قد فتح بها ملف القضية الأهم في حياته، التي يعيش من أجلها... وكان الخلود!

الفراغ... مساحة للتأمل، وسماء فسيحة تسمح لنزق الروح بأن يحلق في فضائها كضوء شفيف لا يرى، هنا يُخلق الوهم.. ويُعاشر بكل ما للرغبة من سطوة، يُتنفس دخانُ عصره الكثيف، وغبارُه، فتلتحم به الحياة لتصبح وإياه كتلة واحدة صلبة، لا تخترقها أشعة العقل والحقيقة والمنطق، كذلك كان "عيسى" الذي لم يحتج الأمر بالنسبة له إلى جهد مبالغ فيه؛ ليتخلص من داء الولع بالمجهول؛ فافتضّ خزانة أمه، لعل الاطلاع على ما بها يساعده على ملء فراغه، مدفوعًا بقدرة المخيلة على أن تضفي على جميع الأشياء المخبأة قداسة أكثر مما هي عليه بالفعل، ما إن تُمنح الوقت الكافي، كان هذا أحد الدروس التي لقنتها إياه أمه حين رأته يحاول أن يرفع ثوب ابنة الجيران:

– ويش تسوي الله يسود وجهك؟ والله لأذبحك!!
– ما أسوي شي!
– ما تستحي.. تبي تفضحنا؟ عيب وخزي اللي تسويه.
– ليه عيب؟
– لا تمد يدك على شي مغطى إذا مهو لك.
– طيب أمها تقول راح أزوجك إياها..!
– الله ياخذك وياخذ أمها!

لم يردعه ذلك الدرس، الذي ترك على جلده بعضًا من آثار حروق جمرة وضعتها أمه على يده، ظل ينظر إلى أثرها كلما ارتدت أمه لباسها الأسود مخفية كل شيء، إلا أن ذلك قد زاد من فضوله، ودفعه إلى أن يوجد حيلًا تقيه شر الحروق، وتضمن لمحاولاته النجاح في ألا يترك لأمه فرصة الشك بأن يدًا غريبة غير يدها امتدت إلى خزانتها وعبثت بمحتوياتها.

– "وجدتك!!!" كان هذا ما قلته حين رأيتك للمرة الأولى.
– وهل أفرحك الأمر؟
– كيف ستنظر للأمر حين تلقى ما كنت تبحث عنه، وأنت لا تملك منه ما يجعله مميزًا؟
– الفرح لا يصيبني، ولكنني بمقدرة تكفي لفهم الأمر على أنه تيه محض.
– إذن.. من هنا علينا أن نبدأ الحديث؟!

امتزج العبث بالعتب، وبدأ حديثًا ليليًا دائمًا يحمل سحر الفقد، ويبتعد بهمهماته فوق رمال باردة، تأخذه إلى حيث لا تصله عين الترقب.

كان ذلك بعد أن أقفلت أم "عيسى" خزانتها الخشبية على أشيائها، التي تفوح منها رائحة عتيقة لقطن نال قسطًا من الرطوبة

لزمن طويل، وذهبت ساحبة نفسًا هادئًا إلى حيث وسادتها؛ فأثارت رائحة القطن في نفس طفل نزق رغبة في اكتشاف الخزانة التي اعتادت أمه أن تخرج مكافأته اليومية منها معبأة بتلك الرائحة.

– إذن.. فرائحة القطن كانت القاسم المشترك، في كل أشياء ذاكرتك؟

– لم أكن أعي أن لرغباتنا الطفولية خلودًا سريًا؛ ليس لنا رصد حركته، إلا أن تلك الرائحة تعبّر في ذهني عن كل ما له قيمة حقيقية بمقاييس أمي، لا أستثني حتى صورتك!!

– وابنة الجيران؟

– شيء من الولع بالمجهول.

– حاجتك لحراسة أكبر من وعي أمك.

– كيف لها أن ترى غيب الأشياء.

– قلب الأم غير مستثنى من أن يكتشف الغيب!!

– تبتعد بإجاباتك عن الأسئلة.. لماذا؟

– خوفًا على الحقيقة من أن يخطفها الوهم.

– ألا تخشى علينا من أن يختطفنا المجهول؟

– الأسئلة ذئاب شرسة، احذر معها أن تتخلى عن وعيك.

– لماذا؟

– لكي لا تلتهمك.

– هل تسخر مني؟

– لا أفعل!! وإنما أحاول أن أضيء قنديلًا، وسط الظلام الذي يملأ جمجمتك، حتى إن كان الزيت الذي أستخدمه مليئًا بالشوائب والأوساخ التي لا تليق.

– حديثك مرتفع!!

– عليك أن تعرف معادلة الضوء والظلام وعقلك والحياة.

– وكيف أعرفها؟
– حين ترتفع ذات يوم.
– إلى أين؟
– إلى المكان الذي تخشى عنده السقوط.
– القمة كل جهاتها سقوط.
– القاع فقط جهاته بلا سقوط!
– لم أفهم ما تقصد.
– ستفهم ذات يوم بعد أن تصنع عالمًا لا يتسع إلا لك، لكنك لن ترجع بما ذهبت!
– وأنت.. ألن تكون هناك؟
– الحقيقة ليس لها من شريك.

آنذاك.. ابتدأت الجريمة بالخلود، وظل طعمها المر يعيد نفسه كل يوم، لعله يجد أحدًا مدركًا لحجمها، الذي بلغ به الوجود في تلك اللحظة مركز الحقيقة، وكان محيطها يبعث بأمواج تسابق الزمن باتساعها؛ حتى أصبح الابتعاد هلاميًا، تلك كانت حقيقة أيضًا يعجز عن تمييزها إحساس مغرور يتركها على أرصفة الأيام الطائشة؛ لأن الاطمئنان إلى قداسة ثمنها أكبر مما يفرضه عليها الواقع، حين تُترك على أرصفة الجهل للعابرين، يرحل كل شيء؛ فيمتلكها فيما بعد فراغ لا يسمح لها بموقع يمكن الإشارة إليه، لذلك؛ فإن الخطيئة هنا أكبر من أن تُغتفر بالبقاء!!

3

كان هذا حديثًا باهتًا كتلك الأحاديث التي تبدأ بـ نِيّة طيبة جدًا، وطمأنينة تشبه ظل الله على الأرض القاحلة، ثم تمنحها مخيلة جائعة هرمون النمو؛ فتتضخم سريعًا، وتسد رمق القلق بشيء من الحقيقة المفترضة.

– كم تبلغ مساحة الوهم التي تحيط بهذا المكان؟!

– يكفي الوهم بأنه صنعه.

– ومتى تتسع مساحته للحقيقة؟

– كل شيء هنا يشبه الحلم الذي ينتهي منه صاحبه في صباح باكر؛ باحثًا عن تفسير، وماء يغسل به جنابة أصابته مما حدث.

– أتراه وهم؟

– وهل تظن؟

– بماذا؟

– بأنه كذلك!!

– لا أصدق الأشياء التي لا أفهمها.

– وهل الفهم ضرورة؟!!

– لا أعرف.. لكنني أعرف أنني أخشاه.

– ليس فيّ ذلك من جديد، لكن عليك أن تعرف أن خوفك وجه معرفة.

– وأنت.. هل علي أن أفهمك أيضًا؟

– لا.. ليس عليك أن تفعل بالضرورة؛ لأن الفهم في مثل هذا المقام مقتل.

– لماذا؟

– لأن الأشياء تقتلها أسبابها.

– لم أفهم!

– لن نبقى أنا وإياك على مقربة لفترة طويلة.

– لماذا؟

– سنفترق.

– لم أفهم لماذا؟

– لأن البقاء ألم.. غير أنه أحيانًا يكون أكبر من مفترق الطرق.

– ليس في الألم من جديد؛ فقد قالت لي أمي ذات يوم "إياك أن تثق بالفرح"!!

– صدقت!

– أليس الحزن هو باب ألمنا الأوسع؟

– إياك أن تختزل الحزن بالألم.

– ترى أيهما أوسع.. الحزن أم الألم؟

– أنت تسمع الحروف دون أن يذهب بك سمعك إلى أبعد من وقع رنينها!!

– ما المشكلة؟

– بعض الحروف جهتها أخرى.

– كيف؟

– أسئلتك أكبر مما يجب.

– لعلي بذلك أصيب الوهم بمقتل.

– لا مقتل للوهم، بل إنه قاتل!!!

– وإن حدث فما زال خصمًا!!

– تمتلك الشجاعة.. لكنك لا تمتلك قوة تذكر!!

– وما الفرق؟

– تقاتل بشراسة دون أن يهدم صرح وهمك، فتنسى أن الأسئلة ذئاب ليس لك أن تثق بها.. هل فهمت؟

4

على الجهة الأخرى من الذاكرة، كان سكان أبناء القرية يتناوبون على اجترار قيئهم اليومي دون ملل؛ مستخدمين رزنامة ليسَت بأوراق مؤرخة، على اعتبارها حالة مزمنة وضمانة فريدة، ليس لها من ثمنٍ يرفع من شأنها؛ لتصبح أرقى من وسيلة ينقلون بها رائحة زمنهم الرطب إلى بذورهم البشرية المتبرعمة سريعًا، فيكون خبزهم اليومي بذات الطعم.

– أليست الحياة جناية

· انعطاف مفاجىء لا بأس به.. ولكن جناية من؟

– لا أخلط بين السائل والمجيب!

· الكل يفعل .. فما الفرق؟

– الفرق أنني لا أقوى على ذلك.

· إذن لماذا لا تجيب

– وهل تبحث عن خطيئة؟

· الجسد خطيئة... وأنت كذلك فلماذا أفعل؟

– لتكتمل الحياة

· بالخطيئة أم بالبحث

– بكليهما

· أليست المحاولة بحد ذاتها فعل؟

– بلى ...

· ولكنها ليست الفعل ذاته، كما أن الفعل لا يؤكد رد الفعل؟

– كيف؟

· محاولة القتل فحسب لا تنتج قاتلا لأنها لا تنتج مقتولا..

– ولكنها تؤكد القتل ما إن تحققت

· هذا إن .... فقط، غير إن الامكان ليس دليل إثبات

– إن تحققت!! ولكن عدم تحققها ينفي عنها النتيجة، والفعل بالنتيجة لا بالمحاولة.

– لماذا تهرب عن الحقيقة؟

– إنما أهرب بها، لأن الإمكان ليس دليل إثبات!

– لماذا؟

– لأن معادلة الضوء والظلام ستختل.

– كيف؟

– حين تفقد الأفعال غاياتها... تنتهي!

– لماذا؟

– لأن الأشياء تقتلها أسبابها.. أليس كذلك؟

– ....

– إن أردت أن تعرف الحدث.. فارتفع لتراه بشكل كلي.

– كيف؟

– كما ينظر الحاضر للماضي.. والمستقبل للحاضر.

– وهل الزمان والمكان يحددان الجريمة؟

– الحدث أولًا.. ومن ثم الزمان والمكان؟

5

ظلوا كذلك رغم أن السكون استفزهم مرارًا، وزنت بأحلامهم المدن القادمة حثيثًا بالزجاج! لم تمنحهم فرصة إدراك أو تدارك المشهد، فكانت جريمتهم تجربة خلود، أعادوها للمرة الثانية على أنفسهم سرًا، لكنهم كانوا بوعي أقل من حفظها عن ظهر قلب؛ فلم يدركوا ما لتجربتهم من تداعيات بعد أن أودت بهم حماقاتهم إلى خارج جنتهم، لكنهم بعناد ليس له من لجام، وبنسيان لا يمنح ذاكرتهم التجارب المتراكمة.

– أليس بحديثك بعض الصعوبة.

– أثرت انتباهك لذلك من قبل، لكن ذاكرتك صنيعة هذا المكان، ورأسك ظلامه الحالك.

– أحاول أن أهتدي بأسئلتي إلى المختلف.

– إذن أنت بلا عقل.

– لماذا؟

– لأنك لا تعرف ما تبحث عنه.

– وكيف لا أعرفه؟

– أسئلتك تدل على أنك لم تعرف نفسك بعد، ولذلك؛ أنت لا تعرف ما تبحث عنه.

– لكنني أعرفك!!

– وكيف عرفتني؟

– حين وجدتك لم أنكرك!

– وهل هذ دليل معرفة أم دليل جهل؟

– دليل معرفة.

– كيف؟

– إنني لم أنكرك.
– إذن تعتقد بأنني لست مختلفًا.
– لا أعتقد.
– إذن أنت لا تعرفني.
– لماذا؟
– لأنني المختلف!! فأنا لست أنت.
– ما الفرق؟
– أنا أعرف ذاتي.. لذلك أعرفك؛ لكنك لم تعرف ذاتك.. لتعرفني.
– إن رضيت بما تقول سأكون يائسًا.
– وأنت كذلك!
– المختلف غير سائد.. وأنا أبحث عن غير السائد.
– هكذا يختلف الأمر.
– وكيف؟
– بأن تحدد السائد لتحدد المختلف.. فأيهما أنت؟
– أنا.....أنا؟!!
– والآخر؟
– تحدده الأنا
– اذا أنت ثائر عليه بشكل أو بآخر؟!
– علي البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول حتى بالثورة.
– الثورة قد تخسر بشغبها عقلك؟
– إن خسرت الجزء في هذا: فسأربح الكل
– ستؤذي نفسك
– لعل الآم تغسل بعض حزني
– فقط؟
– وربما حزن غيري.
– تأخذ على عاتق أيامك المتطايرة أكثر مما يحتمله جسدك

المؤقت. تغترب لمجهول يصنع منك مخلوقا لا يتقن فنا أكثر من القلق المزمن، والترقب للهوية الضائعة وسط ضجيج من الوهم.

– ما الحل؟

– أن تعيش الحياة لنفسها، ليس لأن تفهمها!

– ....

– أو تعرف متى تسقط الحياة؟

– متى؟

– عندما تتحول تفاصيلها الإنسانية إلى حقائق مطلقة!

– وهل سقطت حياتنا؟

– إنما هي ساقطة.

– إذن نحن بحاجة لنبي.

6

هذا هو المشهد العلوي لتلك البقعة؛ بعد أن اعتاد أن يأتي الماضي الرث إليها ناضجًا، مسعفًا رواد الليل منهم بما يسد الرمق، ويطفئ توقد شبق ما، ولكي يمارسوا وهمهم؛ كان ذلك هو المبرر الأكثر منطقية، حتى إن أدت تلك الممارسة الشاذة في كثير من الأحيان.. إلى أن يسمع في أروقة المخيلة وقع خطى حذرة، وفي أحايين أخرى يصدح صوت إناء من المحرّمات، كان قد سقط على حين انفلات وملل، وعاد لزمن البدء محطماً.

– كل ما في الحياة يتجه نحو نهايته!!

– لماذا؟

– ليحظى ببداية جديدة.

– اليس هذا هو الانتحار؟

– لا

– لماذا؟

– الاتجاه الطبيعي أن تترك الحياة تقودك فلا تفترض لقدرك نهاية بذاتها ولا تعمل على تحديدها.

– نحن نعيش هنا هكذا.

– هنا...! الرمال تحمل نقشًا يدل على أن المطلق مر من هنا، بعد أن كان قد سقط عن حالته السماوية؛ فتلبس حالة ساذجة! فكان صنمًا مضحكًا.

– هل تتحدث عن نفسك؟

– من يصبح بهذه الحال ستنحت ملامحه الرياح المزمنة، وتتحول إلى غبار.

– غبارنا مزمن في هذه البقعة من الأرض.

– لأن عقولكم تحتاج إلى أزمنة من الرياح؛ لكي تتخلص من صخورها.

– لعلها تسقط ذات يوم.

– إن كانت مطلقة.. كيف لها أن تسقط؟!

7

وهدأ وشم أقدامهم على رمال البؤس الساخنة تلك، ولم يعد السير ارتجالًا بين بيوت الصفيح، الوهم بدأ صيرورته، وأمست حقائق الأرض في عزلة مطلقة عن الحواس؛ لأنها آنذاك كانت غير قادرة على خلق علاقة شرعية بمفردة واحدة من مفردات الحياة

على الأقل، وما إن أسدل الله على شبه الحياة هناك ستائر ليل بهيم، حتى بعدت المسافة اللازمة للخلق، فجاء الناتج الزمني المفترض لا يحمل صفة الجمال إلا سفاحًا، ولذلك؛ فإنه لن يقبل حركة الساكن، ما دام هو الابن غير الشرعي، هناك لا شيء يغسل جنابة الفراغ أكثر من هروب أبدي، لذلك؛ فإن الناس يوقفون الحياة في الضفة الأخرى، ولا يتركون لها وسيلة العبور إلى جهتهم؛ لتكون بقدر وقوفها المستمر في طرف ممر الأحداث المملة أكثر فتنة، وجمالاً!!، فرفعوا صوت بكائياتهم عالياً:

– هذا هو المكان إذن؟!

– نعم غير أن الوهم ولد.... سريعًا.. بريئًا.. وأصبح ضوؤه لا يطاق.

8

هنا وهناك... المكان.

.... هنا وهناك... الوجود.

.... هنا وهناك... كان...!!

ي ليس لضياعها من

- ما الذي يمنعك من أن تأتي؟
- ليس على مثلي المجيء.. لأنه ليس على مثلي الذهاب.
- لماذا؟
- لأنني بلا وطن.
- كبرياؤك كرجل.
- لست برجل.
- فكيف تكون أنت هو أنت إذن؟
- أكون كالذي لا يمكن الإشارة إليه.
- أليس العدم هو ما لا يمكن الإشارة إليه.
- هذه هوية عدمكم.
- و ماذا عن عدمك؟
- عدمي بلا هوية.
- هل الأمر بهذا القدر من التعقيد؟
- الأمر واضح لدرجة أنه لا يُرى، غير أنك نتاج أيام صفراء مكفهرة، ولا بد لفراغك المحيط من أن يهبك القدرة على صنع وهمك الخاص.
- أهو قدر مزمن؟!
- هو كذلك بقدر خضوعك له.
- خضوعي لمن؟
- لمن لم يسجد يومًا لك.
- وهل هناك من سجد لي؟
- كل الأشياء قد سجدت لك بصفتك كـ مفهوم، وليس بصفتك فرد.
- لم أفهم.
- ولن تقدر.
- ظننتك من يقرر ذلك!

- تركت لك ما تعتمد عليه لتقرر وتترفع عن صغائر أمورك، لذلك؛ فقد تركت المكان لكم، غير أن أغبياءكم أوهموا بعضهم بصداقة مريبة تربطهم بي بهدف الابتزاز.

- لماذا لا تعاقبهم؟

- هل تقترح عليّ ما أفعل، أم إنك تأمرني؟!!

- أنا أحدثك فقط.

- تستخدمون التاريخ لتحولوا الكثير من الأشياء إلى أمر السيادة، والسائد مقدس.

- أتمنحهم عذرًا؟

- العقل دليل إدانة، وليس دليل براءة.

- لذلك أنت تشبههم حين حولوك إلى رمز ذكوري مقدس، وكتلة جسدية ليس من بين صفاتها الاختلاف.

- شيء من هذا!

- وهل سأراك؟

- إن أردت أن تراني، عليك أن تقتلني على الأرض، وتحيي الإنسان في داخلك كشرط ضروري.

- كيف يكون ذلك؟!!

- إن ظن الإنسان أنه امتلك الحقيقة، تحول إلى إله أرضي، يحيي ويميت، ويتخذ من أبناء جلدته العبيد.. وهمًا!!

- الوهم خطيئته.. فكيف ينقذ نفسه منها؟

- ما إن يعتقد بأنه يمتلك الحقيقة يكون قد اغتال عقله، وهكذا يتنازل عن نفسه، ليختطفه الوهم.

- فما الحل؟

- العقل يحيي ويميت؛ لأنه رمز الحقيقة الذي به يُفتتح باب الوهم، وتذكر أن باب الوهم لا يكون بالضرورة وهمًا.

- لقد ابتعدنا كثيرًا.

9

الزرقة لا تزال آخذة بتلابيب المكان، رغم محاولاته العدو بعيدًا في الظلام، والتغلغل بين ركام الوقت القادم، مجتازًا بأشلائه سمة انعدام التماثل بمركب مفرداته وأبسطها، هكذا إذن سيُكشفُ عن أن في التماثل ترتكب المخيلةُ وهمَها، فيكون بجمال سريع الوجود والعدم، كنيزك.... بعيد، وما إن يندب الفراغ مريديه عبر صوت الذكريات؛ يتحلقون حول أنفسهم، ويخرجون ماضيهم عن دائرة لا يحتمل اتساعها دقائق الزمن الجديد، تلك الدقائق المبعثرة على أطراف مدن الجمود، تصيخ السمع لهمهمات الضجر في صدورهم الهشة، وحروف فخرهم الرخيص بأعراقهم المتشابكة، يتناوبون على حمل مطارقهم الصدئة.. يطرقون بها وجوه آبائهم وأجدادهم، لربما تخرج أكثر بريقًا في عين زمن يرفض تقبلهم، فحلول الماضي بأيامكم حلول مطلق، يصنع من وجودها الثقيل أقنعة فاخرة تجعل الشك أكثر رسوخًا.. وثباتًا، كل شيء هناك صنيع صحاري قاحلة تحاكي موجوداتها العدم...

– لماذا تغادر دون أن تترك لي من دليل؟

– ما أتيت إلى هنا يومًا.

– ألا تشعر بالانتماء إلى هنا؟

– لا.

كان هذا حديث ذاكرة يكتنز بأسرار البدء، إلا أن صوت أمه جاء مفاجئًا...

– وين كنت؟

– كنا نلعب عند ساحة الدحل الجنوبي!!

– خل بالك من هذيك الساحة.. تراها مسكونة بالجن.

– من قال؟!

- الناس.
- وإذا كان بها جن؟
- تعوذ من إبليس.. الله يحفظك يا ولدي!!
- ليه الجن يكرهنا يمه؟
- لأنه ما يحب لنا الخير.
- شلون؟
- لا تسأل يا ولدي.. وعسى الله يحماك منهم بس!
- وليه ما أسأل عن الشي اللي تبيني أخاف منه وأنا ما شفته؟!!
- الله يكفينا شر لسانك وبلاويك.
- ليه؟
- يا وحيدي أخاف منك لا سألت، ولا أدري كيف أجاويك!! تريني إذا انهبلت منك.

عبر نافذة هذا الحديث المشحون، بدأت حكاية ذلك الـ "عيسى"، حين قرر إعادة سرد حكاية الخطيئة الأولى لنفسه، ولأقرانه علّه يحظى بمقام لم يرثه عن أبيه كغيره من الأطفال، الذين وجدوا آباءهم فرائس سهلة الاصطياد بشباك الأسئلة، ورضوا بإطلاق سراح آبائهم مقابل أجوبة رخيصة تفي بغرض الاطمئنان عليهم من الشتات، حتى وإن لم يكن لها علاقة بالعقل ؛ فكانت جميع أسئلتهم حول السراب الذي يبقى مراقبًا ليومهم الصيفي الملتهب بلا تفسير اجتماعي، ولذلك؛ ظل هو ماءً هاربًا يغري بعضهم بالهلاك عطشًا إلا "عيسى"، الذي لم يحظ بذلك؛ لأنه بلا أب يضع لأسئلته الثائرة حدًا سميكًا، بعد أن وجد أن جدران الأجوبة التي تضعها أمه أكثر هشاشة من بيوت الصفيح، فلذا؛ كان الثمن بقيمة تفوق حقيقة الهدف، وكان الوطن ليس جديرًا بكل ذلك الاغتراب، لتأتي رياح الحنين الموسمية ذات مساء صيفي بقليل؛ يكفي

لضمان عدم الرجوع..!

– سأتجاوز فقدك بأن أجعل من نفسي عددًا مفردًا تدركه طوابير البؤس والقمع والفقر، حين اقتنص من سقط هذا الوجود العشوائي نجاحات مدركة لا يمكن تجاوزها.

– ......!

وانقطع الصوت.. فلم يعد يأتي كما كان، غير أنه أكمل صارخًا بكل ما يمكن لحباله الصوتية من اهتزاز، لكنه لم يفز برد برغم كل ذلك!

10

كان البدء بلون الحزن، ولأنه كذلك؛ جاء الناتج يحمل ذات اللون الداكن وربما أكثر؛ لنيل مكان ما وسط هذا الفراغ الإنساني المتقن، كان الوهم داءً دفع بـ"عيسى" لأن يسقط في البئر، ولأن دراما الأوهام لا يعشق فصولها إلا أولئك الذين يثير شهيتهم الغموض؛ لتجاوز الزمن بأي ثمن. كان للصوت الذي روى للصبية قصة "الجني" المختلَقة من الصدى ما يكفي لإخافة العقل، كغيرها من الأوهام المترسبة في قعر الفنجان، "وضرب الودع"، وتلك الأخرى التي يبحثون عنها بين سطور القرآن أو في بصاق مبارك، هؤلاء هم الناس، كلما طال بهم الزمن وقوفًا زاد ولعهم بالوهم!! حتى "عيسى"؛ لم يقو على تجاوز نمو الوهم الذي خلقه في داخله، فكانت النهاية أكبر من أن يحتملها جسده.

– إن خالط الوهم الحقيقة.. أصبح الجسد غاية؛ لأنه بلا روح.

– كيف يكون ذلك؟

– تنقلب النوايا.. و يخرج آدمَ عن جنته جسدهُ.

– وما الذي يختلف؟

– لا شيء.. فكلهم بذلك آدم.

– أهي الخطيئة.

– وليس غيرها.

– والروح؟

– ......!

انطلق الصوت بلا جهة تعيده له!! كما كان قد اعتاد على العودة بتلك النجاحات لأمه؛ عله يرمم ابتسامة ثغرها من جديد، ويريها درع الوهم الذي صنعه لنفسه؛ ليقيه وإياها ضربات عيون الأقران المحدقة، فأحيانًا يكون الاعتقاد بأن دروع الوهم تقي الصدر ضربات الحقيقة القاسية!! لذلك؛ كان "عيسى" يرتدي وهمه كلما تعرض ظل الله في داخله إلى الافتراس بأنياب العطف، حين يمزقون كرامته بصدقاتهم التي لا تتعدى أحجامهم، وابتسامات آبائهم في وجوههم، فينادي ألمه من بعيد:

– ألا يقاس حجم الهدايا على مقدار معطيها؟

– بلى.. لكن؛ كيف يمكن لابتسامة عابرة أن تحيي ألف جرح خفي؟

– وحده الآخر من يمنع وجوده العري كحدث، فلا يمتاز جسد ما بعلامة فارقة!!

– أليس الحزن سمة فارقة؟

– الحزن ثوب بألف لون.

11

طفق "عيسى" يخصف من أوراق الذكريات على عورة حياته ذاتها، بعد أن تكشّفت له بأنها بدأت بخطيئة السائد حين يحكم، وستنتهي بذلك...

– هل الحاكم سائد.. أم إن السائد حاكم؟

– أسئلتك بلا أفق!!

بعد أيام من الفراغ.. جاء القمر مانحًا الأرض والحقيقة الضائعة بين الأزقة الرملية الضيقة زرقة داكنة، هكذا احتفظت الذاكرة بما حدث حين تحلّق صبية ذلك الفراغ حول "عيسى"؛ مؤكدين بشكل غير مباشر جوعًا أبديًا للأسرار، متلهفين لأن يطلعهم على ما يثير نشوتهم بالأوهام، تلك كانت الحيلة الأولى التي اتخذها لنفسه مستغلًا ما يعرفه عنهم من رغبة في الخلود، كان الليل كعادته سر الجريمة الأكبر الذي لف حباله حول عنق "عيسى"، بعد زمن ليس ببعيد.. فاختنق بوهمه، وكان هناك وحيدا والرمال التي تشاركه جسده في مساحة قبره.

– كيف يمكن لبئر فقدت الجزء الأكبر من صلاحيتها أن تمنح مساحتها لأشباح مميتة في الوقت ذاته الذي منحتهم فيه الماء؟ كيف يقترن الشر المطلق بخير مطلق؟!! فيترك الإنسان لوهمه أن يودي بحقائقه.

– بعلمي هي ذي الحياة؟!

– الحياة بمعنى أشمل من صراع الخير والشر بشكله البسيط.

– هل أنا جزء من الحياة.. أم إن الحياة جزء مني؟

– حاول أن تجيب.

– لو استطعت لما طلبت الإجابة.

– لن أجيب.

– أحيانًا تتخلى عنا.

– أتخلى عنكم حين تتخلون عن أنفسكم، ومن ثم تتخلون عني.

– وهل في ذاك شر؟

– الشر جزء منك بشكلك المبدئي، غير أنه يملكك حين تبدأ بالتلذذ.. فتتحول أناك إلى حاكم مطلق.

– وما العلاقة ما بيني وبينه؟

– هي ذات الصراع.

– وهل الجسد شر؟

– عليك أن تتأمل قصة خلق ذلك الـ آدم لتعرف أين يكمن الداء.

– يقولون إنه خُلق من طين؛ ليصبح خليفة في الأرض.

– و ماذا أيضًا؟

– إنه أكل من شجرة الخلود بعد أن وسوس بقلبه الشيطان.

– وهل احتمال الموت كان قائمًا ليبحث آدم لنفسه عن خلود؟!

– لا أعرف!

– وما الذي تعرفه؟

– بأن الملائكة سجدوا جميعهم لآدم، إلا إبليس لم يفعل برغم أنه تلقى أمرًا.

– ألا يعني السجود الخضوع؟

– بلى.

– ما الذي يخضع للإنسان في هذه الحياة؟

– كل شيء.

– أليس من استثناء؟

– لا أدري.

– هل يخضع الإنسان لمطالب جسده؟

– بلى.

– إذن.. فالخضوع هنا غير واردٍ من قبل الشر؟

– إلا إبليس أبى واستكبر؟!
– هنا تمامًا عليك أن تتوقف.

12

يصارع النفس وهمها فتموت الحقيقة في كثير من الأحيان بمحاولات قتل الوهم..

صوت العرافة قبل أن يعبر الثلاثين عامًا؛ كان ينثر خروفه على الجروح القادمة كالملح بأن هناك من ينادي تحوله ليحدث:

– الحدوث حالة موجعة.. لأن الحدوث يحمل نهايته.
– وش تقصدين؟
– ابنك!
– إيش بلاه؟
– يقتله الحلم.
– يمه.. هذا كلام خرافات.

ترك عيونها للارتباكات التي يخلقها الصمت والفراغ، وأكمل بعدها... بأن أغلق على مشاعره أبواب الكتمان؛ أملًا بانتهاء المخاض، أكمل متوجسًا طريق الحلم بولادة وهم سليم ومعافى، ينمو بأحشاء أمه وتسقيه من دمها كما سقته من قبل، كان "عيسى" محاصرًا بأمنيات يحيطها الغموض.. بأن يشب هذا الوهم الجنين أمام عينيه ويترعرع؛ فيتمكن من أخذه معه حيث شاءت أحلامه الصبيانية.. فيكسر به أنف طريق العودة من المدرسة وحيدًا، ويرتديه درعًا يقيه حراب المتربصين، وليكون هو هارون الذي يشدد به أزرًا.

ترك عيونها غائرة في صمتها ولم يرد، إنما اكتفى بحيلة سريعة عندما سألته:

– لِمَ تنظر إلى الأعلى؟

– أحلم.

– بماذا؟

– ببيت تحجب سقفه السماء!

– أعوذ بالله... إنه قبر!

– ......

وتلبست نبوءتها الوهم، ولكنها حقيقة أعمق من الحواس العشر، التي تملكها وإياه، فلقلب الأم مجسات تفوق أسباب الأحداث وغاياتها، ولغة الدموع راية للاعتراف المسبق بالخوف والندم. تم ذلك.. ولم يعد صوتها يأتي أنينًا خفيضًا من بعيد كما كان عبر كواليس صمتها الطويل؛ كسمة ثابتة لا يطالها التحول الذي طال كل شيء هناك، فلم يعد يصل صوتها؛ لأن الحاجز الزمني فيما بينهما تراكم على نفسه، فلم تقو شموع وفائها على النفاذ ببعض وهجها إلى ذلك البيت الذي تحجب سقفه السماء..!! ذلك المكان الذي يُعتقد بأنه سجن لا تفضي قضبانه إلى الحرية، حين يكون الحديث عن حياة ضيقة للجسد تحت الرمال، بعد أن قام الغراب بدفن أخيه فحاكاه قابيل، والحرية الأخيرة تبدأ بعد أن يصبح الجسد غير قادر على حمل أعبائه، إذن فمن العدل أن تنتهي تلك المسألة، فتنطلق الحياة في اللا محدود.

اكتفى بالصمت؛ لأنه لم يستطع تحديد مشاعره آنذاك إلى أين تتجه به، وسط عباب ذهني مخيف. ووهم بلغت سطوته الذروة.. فكان المأزق:

– للحقيقة أم للحلم يكون الانتماء؟

– عليك الحسم!

13

عندما استسلم الجار العجوز– الذي كان يقطن تلك الخرابة المهجورة بالقرب من الدحل الجنوبي – لأقداره وغادر إلى غير رجعة جسده المتهالك، ترك مساحة بيته مشاعًا لذاكرة بيوت الصفيح المتماثلة في الصدأ والصدى، ومغامرات مراهقين لا تنتهي عند خوف، فقد كان جسده الرث وحيدًا وكلبته الجرباء من يقطنان ذلك الإقطاعِ بشكله البدائي والبسيط، ولأنه كذلك؛ فلم يُحدث رحيله جعجعةً اجتماعيةً كاذبةً كالمعتاد! ما زال الحدث لصيقًا بالذاكرة، وتتمسك أسبابه برفض الكشف عن ساقها؛ فتؤمر الأحداث بالسجود، إلا أم عيسى التي كان بكاؤها همسا، فلم تبد له سببًا!

– كيف لدموعك أن تجف؟
– دموعي هي اللي أغسل بها حزني.
– ما الذي يبكيك؟
– للحينك صغير حتى تعرف ويش يبكيني.
– ومتى راح أصير بحجم الأسباب؟
– ما راح تكبر.. لكنك تقتل جمال الدنيا لما توجد لها أسباب.
– ما فهمت!

"يا لذلك المخلوق الحزين".. هكذا كان عيسى يرى أمه.. امرأة تشبه غيرها في إتقان الحزن لدرجة استعدادها إلى تسوله إن لم

تكن تمتلكه، كانت كأية امرأة أخرى؛ حزنها بجمال تخشى عليه الفقد.

14

ما إن انتهى "عيسى" من خلق صورة "الجني" بحديثه لأقرانه؛ حتى نضج مخلوقًا مركبًا من مجموعة أجزاء لا ترتبط برابطة منطقية، وإنما هي صفات اجتزأتها المخيلة عنوةً من حيوانات تقطن بيوت الصفيح (رأس خروف، وأرجل دجاجة، وجسد رجل، أسنان كلب... وغيرها) من الصفات التي تجعل رياح التهيؤات تهب بعنف في جماجم الخواء محدثة صفيرًا مزعجًا لا يطاق، وهكذا فاق المشهد حقيقة أبعاده ليمسي المرتقى صعبًا لا يمكن التخلي عنه إلا بسقوط..! فهذا المخلوق الذي استجمع أجزاءه خيال ساذج.. أصبح ذا وجود شبيه بوجود الله على الأرض، فليس الله في زمن البيع والشراء الذي أحكم قبضته على تلك البلدان أكثر من سلعة تافهة، يجبر على أن يستبدل صفاته الفاعلة بصفات مفتعلة تطرأ كل صباح، ويجسده على الأرض رجل من أكثر مخلوقاته جهلًا، يرتدي بزة عسكرية ترسم حدوده بوضوح ، فيحظى بما لمخلوقاته من حقوق ويقع عليه أكثر مما يقع عليهم من وجود وعدم، وليس هو بأكبر من أنه يمتهن السحر ولا يتقنه!!!!

– هل تفهمني.. حين أحدثك؟

– أجل أفعل.

– متى؟

– أفهمك حين تحدثني بلغة روحك المتألمة؟!

– هل تعرف أنني برغم حبي لك لن أعترف بك مطلقًا.. إن لم تفهم ألمي!

– الألم شرط النجاة.

– أحيانًا تكون النجاة أنانية محضة.

– ولم لا يكون الهلاك أنانية بالمقابل.

– لا أدري إن كانت أسئلتي تغضبك؟!

– إن سألت قلبك فسيخبرك إن كنت تغضبني بذلك أم لا؟

– وهل ستغضب؟

– أنا أكثر عمقاً من الغضب.

– لذلك فصمتك لا نهاية له.

– لست ناطقًا.. لأصمت.

15

انتهت الرواية فأخذ الذهول من الأطفال مأخذًا صعبًا، وامتلأت أفواههم بالأتربة المتطايرة، وأصبحت الساحة المحيطة بـ "الدحل الجنوبي" / المكان الذي يقصدونه ليلًا إن أرادوا تبادل أحاديث خطرة أو استعراض أعضائهم الذكرية للتفاخر بحجمها، كقضية تعبر بوضوح عن وجودهم الإنساني الأول.

كان حضورهم للاستماع إلى سر "عيسى" المخيف في ذلك اليوم مكتنزًا بما لم يعهدوه من قبل، وكان الاختلاف كبيرًا؛ مما جعل المكان أكثر بعدًا عن حدود معرفتهم المباشرة بتجاوز المكان بتفاصيله حد الحواس الخمس، وسبق الاغترابُ الحدسَ بفوارق ضوئية؛ فكان القمر جزءًا من تلك الجناية لما يضفيه على

كل الأجساد الثابتة والمتحركة هناك من حياة.. يفزعهم نوره، ويأخذهم الخوف العشوائي منه إلى عدم الثبات أمام صوت أمعاء أحدهم حين تتقلص من الجوع؛ فيرتبك المشهد بمرتاديه.

يفزع أحدهم.. فيقفز الآخر من مكانه ليفر الثاني.. فالثالث... ثم يتفرقون، وكل واحد منهم يُخيل إليه بأن يدي "الجني" الذي رآه "عيسى" وتحدث إليه ستمسك بثوبه من الخلف، لذلك كانت كل تمائم جداتهم أضعف من صد وهم طفولي مباغت.

– كان الصوت طفلًا صغيرًا بحركته وغايته.

– علمت ذلك.. غير أنك لم تعلم آنذاك أن الصدى سيكون شيخًا كبيرًا ثقيل الخطى!

– لم تخبرني بذلك!

– ذلك هو الخوف حين يشب عن الحد، ويتداخل بيقينياتك؛ فإنه سيسمح لمطر التهيؤات بأن ينهمر على حقائقك.

لم يكن "عيسى" قد علم أن النوايا السرية تأخذه في طريق ضيقة لا تفضي إلى أمل؛ ليكتشف فيما بعد أن حجم الجناية قد أصبح بمقدارالتيه وسط زحام الحياة، التي أصبح جميع أشيائها بلا ظل.

– يخيم التيه على أيامك بأكثر مما تحتمل.

– لأن أيامك أكبر من أيامي.

– لا أريد لك الملل بإطالة عمرك.

– أمن العدل أن تختصر مسافته؟

– تضحكني شجاعتك على قول ذلك.

– لماذا؟

– لأنك تجادل فيما يفوق وجودك.

– هل تحاول إخافتي؟

– أحاول أن أثير انتباهك بحب.

– وهل تحبني؟
– هل ثمة احتمال أنني لا أحبك؟
– لا أفهم لماذا تصر على تركي وحيدًا، برغم نداءاتي المتكررة لك لتأتي؟
– سيطول انتظارك إذن.
– هل يعني أنك لن تأتي؟
– بل أنت من سوف يأتي.
– ....!!

كان الفرح يداعب في أقصى الروح مكانًا خفيًا، فتستلذ النوايا بالنتائج التي حققها لها الحلم، ولم تكن بالحسبان.

- - - ـ نـعم... إنني ابن امرأة يا أولاد "القحبة".. وتربية امرأة... غير أنني سأضع في قلوبكم ما يعيدني إلى صدارة طابوركم الطويل في عالم التشوهات العقلية المتكررة. آنذاك ستقولون بأنني بألف أبـ- - - "هاكم.....!!!"

إشارته التي عبرّت دلالتها عن عورته؛ كانت الدليل على طبيعة علاقته بالمكان حين ينمو كما تنمو الفطريات على سطح الأرض، توجد و تتكاثر متبادلة فيما بينها كل الصفات التي تعبر عن طبيعة ذلك النمو، فتلك الأزقة الرملية التي كانت الحاضن له ولغيره منذ البداية تمنح أولادها البائسين فرصة التقاط شعارات المراهقة منذ اليوم الأول الذي يخرج فيه مشروع الفرد إلى الحياة العامة؛ فاتحًا كتاب تجربته في المكان؛ فتأتي المقدمة سوقية توفر لصاحب الكتاب الطمأنينة بأنه لن يكون مغتربًا أو مختلفًا.. وإنما سيكون فحلًا شبيهًا بمن سبقه من الفحول!!!

– الناس هنا يعيشون كالقطيع!!
– أليس هذا هو المجتمع؟
– لقد حرّفوا معنى الحياة باختراعهم أسبابها، وتحديد أهدافها،

فعادوا لحياة الغاب التي أخرجوا منها.

– أليست تلك رغبتك؟

– بل هو وهم عاهر وصموا به أنفسهم، غير أنني بلا رغبة.

– كأنك سئمتهم؟

– ليس تمامًا، لكنهم أعجز عن فهم الكل بتجاوز الجزء.

– لم أفهم!

– تأمل الظلام المحيط ستجد أنك وسط ذلك العالم.

– أي عالم؟

– عالم الكل!!

16

كان قد تصاعد صوت أحشاء أولئك الأطفال، الذين تحلقوا حول نبيهم الصغير يستمعون لنبوءته بالقرب من الدحل الجنوبي؛ حيث كان موعده معهم ليلًا وحيث يكون للمشهد التأثير الأكبر في مخيلة المريدين، حينما تختلط التفاصيل بظلام دامس.. كانوا ثلاثة عشر طفلًا.. فانساب الحديث فيما بينهم كما تنساب أحاديث الأطفال عادة، حين يشرعون برواية قصصهم وأحاديثهم بشكل يوحي بإيمان صوفي عميق؛ حتى إن كانت وهمًا مثيرًا للضحك، وازداد الانجذاب لمخارج حروف "عيسى" لدرجة خانقة؛ فافتقدت تلك الأجساد الغضة إلى خفة حركتها بعد أن تسمرت مكانها وسرت بين خلاياها حمى ذلك الحديث، كان "يوسف" أكثرهم قربًا من خط التماس والجن الذي يقطن ليل الدحل، ولم يتساءل هو أو البقية: لم لا يقطن ذلك الجن نهاره؟ طفح كيل المخيلة حتى أعلن

العقل تنازله عن رفض وهمها بقبوله واقعًا.

– للتنازل في حالات كهذه بعدٌ لا يخلو من الخذلان.

– لماذا؟

– لأن العقل حين يتنازل للواقع عن هويته كعقل، يكون خذلان الأفكار أكبر من حجمها!!

لم يقو "يوسف" – ذلك الطفل الأصغر – على شد أنفاسه؛ فتسمر مكانه كأحد أعمدة بيوت الصفيح التي يقطنها هو وصحبه، فخانته أرجله بالهروب، وكان الصوت الحقيقي...

– أنا وحدي من لم يخف مما كنت أرويه، لأنني أنا من كنت قد رسمت كل شيء ، إلا أن المشهد كان بحاجة لأن ينتهي بحركة تجعل من ذلك كله واقعًا فاعلًا.. اخترعت الهروب أولًا.. فعدا الجميع من ورائي.. كل بجهته التي قد يقترحها عليه من هرب قبله!

– ما الفرق يا ترى بين هروبكم، وهروب قطعان الماعزَ؟

– لا أعرف.

– لا فرق!

– هل ترانا كذلك؟

– أنا لا أراكم هكذا.. إنما أنتم هكذا واقعًا.

– لا تسلكون الطريق إن لم تجدوا أثرًا لقدم سبقت أقدامكم في المسير، وهذا ما يجعلكم أشبه بالقطعان.

– أليست الجماعة أكثر قدرة من الفرد على معرفة الحقيقة.

– ومن الذي قال إن الكثرة العددية تعني الاقتراب من الحقيقة!!

– لم أفهم.

– أعرف أنك لن تفهم، ولكنني سأكمل لك شرح ذلك!

– حتى إن لم أفهم؟!

– ذلك يعفيك من الهروب من المسؤولية.

– كيف؟

– المعرفة هيَ التي تحدد مسؤوليتك عن الحدث الذي قمت به.

– كيف لي أن أتحمل المسؤولية إن لم أفهم؟

– تتحمل ما تقوم به لأنه لا بد لك من أن تفهم.

– كيف؟

– بألا تخذل أفكارك بالتنازل عن عقلك لواقعك..فتصبح فردًا من قطيع!!

– فماذا أفعل إذن؟

– ألا تشترط وجود أثر لقدم سبقتك بالمسير في الطريق الذي تنوي سلكه.

– قد يكون ثمن المغامرة أكبر من حجمها.

– تلك هي حياتكم!!

– ولماذا لا تكون حياة الجماعة هي حياتنا؟

– متى ما كانت كذلك.. ستتنازلون عن صفة الجماعة لتكونوا كالقطيع.

– كيف؟

– تكونون جماعة حين تكونون أفرادًا لا تتنازلون عن عقولكم لواقعكم أولًا، وتتحولون إلى قطيع حين تصبح فكرة المجموع أكثر قداسة من الفرد!! كونوا أفرادًا قبل أن تكونوا جماعة لتكونوا جماعة!!

– وهل نستطيع؟

– لديكم قسط من العقل... يكفي!

17

الحياة... ذاكرة يومية، تنقش الأحداثُ أوراقَها بحبر التجارب الإنسانية؛ فتجتمع لحظات الزمن الضيقة، تلك التي تسقط.. كأوراق الخريف.. بدافع الأمل بالوجود، لكن الخذلان كعادته يكسر أعمدة أمنياتهم المرتفعة بـ فيروس العدم اللصيق لكل التماثيل المقدسة، التي يقدمها الفراغ إلى الحياة بوفرة. فالأشياء الحادثة توجد حاملة نهاياتها، فبمقدار ما تزداد فاتورة الحياة اليومية باحتوائها على مجموعة من المقدسات؛ يكتشف الإنسان الواهم حجم عبوديته لها، ذلك الشعور يشبه الإصابة بطلق ناري لا يشعر المصاب به إلا بعد أن يقترب من نهايته، وذلك حين يشعر الجسد بالخروج عن دائرة زمنه، حينذاك؛ يتقبل الفرد حقيقة مصيره بأنه كان عبدًا بمفهوم أبعد في معناه من اللون الداكن!! لذلك؛ فعبوديته بلا زمن.

– ما الذي كنتم تتحدثون به بالأمس؟

– لا شيء.

– وين شفت "الجني"؟

– ما شفت شي، كنت أكذب عليهم بس.

– تكذب يا كلب؟!

"أم عيسى" تشبه كل النساء القادمات من الصحراء بالجفاف والخضوع، أورثت ابنها خوفها من الاختلاف!

– قلت لهم اللي حلمت به قبل أيام.

– أعوذ بالله منك، ومن أحلامك "الله يكفينا شرها".

– إن شاء الله.

بهذه العبارة هرب "عيسى" دون أن يعرف السبب الذي دعاه

لذلك، لكنه كان يعي تمامًا كغيره أن الهروب سمة ليس له تركها، وداء ليس لأحد الرغبة في الشفاء منه، يهربون دون أن يعوا مبتدأ ومنتهى الهروب، ولأنهم كذلك؛ فسفرهم تيه أبدي ورحلاتهم بلا وصول، يقطعون صحراء أيامهم بترقب لا ينتهي بمغيب لشمس الأمنيات.

– "أم يوسف" ولدها من هذاك اليوم ما يقدر ينام، والناس تقول إنه حايشه مس، لكنهم اليوم جابوا له "السيد" يقرا عليه، ويسقيه من فمه بعد "سواتك اللي مثل وجهك"، إن شاء الله يقوم متشافي؛ مهو له لأمه المسكينة اللي ما عندها غيره.

– ....!

18

– ماذا بك؟

– أمي ترفض نسيان يتمي.

– لماذا؟

– لأن حروف الشفقة على الآخرين كغيرها من النساء لا تفارق شفتيها الداكنة، التي عبث بها العقد الخامس من عمر مرير، قطعت مسافته مشيًا على الأقدام.

كان "عيسى" يعرف أن أمه تصلي رغبة منها في إرضاء كيان ذكوري خفي يسمى "الله"، حيث يتحدث عنه الناس.. بأن تلك العواصف الرملية التي تأتي عبر صحاري شاسعة القحط والجفاف.. ليست كذلك، وإنما هي نتيجة قرار طارئ منه تعبيرًا عن غضب ما على بيوت الصفيح، تلك البيوت المتهالكة التي تحترق

تحت شمس الظهيرة كل يوم صيفي دون أن يتساءل عقل بسيط يقطن تلك البيوت: لماذا لا تكتمل صورة الله بغير غضب أحمق على ذلك الخراب الذي وجد بالأصل خرابًا؟

– ترى لماذا يكون غضبك هو الباب الأول الذي تدخل منه صورتك إلى الذهن.

– لأنني في الأذهان حالة ذكورية محضة.

– فمن أنت إذن؟

– لن تعقلني.. إن لم تشعر بي!

– هل تعرف أن أمي حين حدثتني ذات يوم عن قبلة الصلاة؛ تحدثت عن أنها تصلي لقبر في "مكة الشريفة"– كما تسميها نساء الجيران، حاولت آنذاك أن أرى صورتك فلم أستطع؛ لأن أحاديث النساء عنك هنا مشوبة بحالة تشبه الحالة الناتجة عن علاقة المرأة ذاتها بالرجل.. حذر وهلع شديدان ناتجان عن تأثير غيبوبة مطلقة.

– هؤلاء الأغبياء كل فرد منهم يعتقد بأنني في داخله!!

– هل سئمت؟

– كيف أفعل؟!

– هل تعرف أنني أخشاك أحيانًا؟

– لماذا؟

– لأنك تركتني بلا سقف.

– تركتك بلا سقف لترى السماء.

19

أمه التي آثرت الصمت لبرهة زمنية، لم تنس حديثها الذي كانت قد إفتتحته معه كما كان يعتقد، ففاجأته بسؤالها الواسع كخوفها:

– لماذا تعذبني بأفعالك الشينة؟

– ما سويت شي، وما قلت لهذاك "الحمار" يجي معنا، بعدين.. وش دراني إنه خواف.

– والله ما من حمار إلا وجهك يا عمى القلب، إنت تحسب هالسوالف شجاعة؟

– والله الخوف خوف.. والا وش الفرق بين الرجال، وبعدين لو ما كان حمار.. كان ماعالجوه بمي و"تفال" من رجال أحول؟!

– "كل تبن" وتعوذ من إبليس، والله يا لسانك هذا يبيله قص، هذا الرجال له "حوبه".

– "ترى هذي مسخرة"، الحين ما يطيب "يوسف" إلا "بتفال" على وجهه.

– تسد بوزك وإلا أسده بـ " نعل " !!!

لجأت أمه إلى التصعيد في حديثها معه كوسيلة فاعله لحفظ ماء وجه القطيع الإنساني، الذي تشاركه الوجود ورسم الأوهام ووضعها على شكل أفكار وحقائق رياضية غير قابلة للنقاش، بعد أن كان ذلك الرجل ذا الزخم الاجتماعي هو الهدف الأساسي لضربات العقل البسيط. الحقيقة هي أن مجتمع الأوهام يحتقر ما ينتعل؛ فيتخذ من أحذيته دلالة واضحة على قوة التعبير والدفاع عن بعض الأشخاص، الذين يتمتعون بمراتب اجتماعية عليا، محجوزة سلفًا دون أن يفكر أحدهم بموقع ذلك التجمع ككل على سلم الإنسانية، وما المرتبة التي يستحقها أصلًا!!

اتجه لباب البيت مقررًا الخروج عن كل ذلك، غير أنه أراد أن يعبر عن عدم الاستسلام للمرأة، بقبول الهزيمة حتى إن كانت أمه:

– يمه!! "السيد" أصلًا أحول.. لو تفل بعينه الحوله هي تطيب؟!!

– الله يلعنك.. تعال انقبر ونم وين مولي؟

الأم... تتسع عباءتها لكل خوف في هذه الدنيا؛ كقلبها الذي يستلقي على نبضاته الدافئة أطفالها، وهم يحضنون تماثيلهم الطفولية الهشة، أولئك الأطفال يختبرون أمهاتهم بآلامهم؛ فيفوزون بوفرة دموعهن كقدر حتمي لا بد منه، يطيل من ديمومة بقائهم تحت سن الرشد والنضوج.

20

وانتهت الحكاية التي كانت قد بدأت بين زوايا الروح الضيقة، فعاد الصدى مرارًا بشتات غير مفهوم، يتجاوز الذهنية البسيطة لطفل يعد من اليتامى؛ لأنه لم يستظل بشجرة عائلته الوافرة، فما إن اختلطت الوجوه في مساحة وعيه، التي شكلتها أيام تعيد نفسها على تلك البقعة دون أن يحرك أحد حراسها ساكنا، هرب من حلمه؛ فاختنق بالمشهد الذي يعيد نفسه حاضرًا كلما ابتعد به الخوف مع سبق الإصرار والترصد.. يهزه من الداخل صوت خفيّ يشعر به ولا يسمعه، لقد كان الليل حديث الأجساد المنكمشة على تعبها، بعد أن استسلمت لأقدارها وطبائعها وظنونها؛ فغفا "عيسى" ليلته الأولى خائفًا، كان قد حاول الابتعاد ذهابًا، ولكن جرأته لم تكف للابتعاد أكثر، تلك الملامح التي شكّلها ليخيف بها أقرانه، بدأت تقف على باب نومه كل يوم.. حتى تحوّل ذلك المخلوق الوهم إلى

حقيقة واقعة بالنسبة له، وحقيقة مقدسة بالنسبة لسكان الصفيح، كغيرها من المقدسات التي تجعل من صانعيها رقيقًا يعرضون أنفسهم بلا ثمن في سوق لا يثير غبار طرقه المشترون، ولكنه يمنحهم الشعور بما يشبه الإمارة، والإمارة فتنة وهم.!!

اجتمعت الوقائع واختلطت الوجوه في مساحة الوعي التي تركها يومٌ مألوف في تلك البقعة الثقيلة بسكانها.. هربًا مما يلفه، فاختنق بالمشهد الذي أخذ يعيد نفسه أمام عينيه مع سبق الإصرار والترصد، ووخزه من الداخل العميق صوت خفي يشبه الفحيح، قطع هدوءَ الليل والحلم، فكان ذلك صوت أمه:

– سيقتلك.. سيقتلك.. سيقتلك!!

حاول الخلاص من الحلم فلم يستطع، بعد أن خرج لسان الجني الذي يشبه لسان الأفعى، وبدأ يلتف حول عنقه.. جف فمه، ولم يستطع الصراخ على أمه التي تركته وهي تبكي قاطعة طريقًا ترابيًا، متجهة نحو بيوت الأسمنت والزجاج البعيدة، كانت الخطى أكثر جناية من المشهد المقترف بشكله الكلي، وأكثر ألمًا من الجريمة الحقيقية، بصناعة الوهم والتداول به كعملة تنطوي على قيمة فعلية، لم يصح من ذلك الكابوس إلا بعد أن أوشك على الموت.. صارخًا في وجه الخوف بلا صوت.. شاعرًا بالجفاف يطال كل شيء إلا جسده المبتل بالعرق، وكان ذلك مشهد ما قبل النهاية.

21

ما إن عدا الصبية خلف "عيسى" بقليل.. حتى عاد وحده دون أن يلحظه أحد، ليكتشف أن المكان قد خلا تمامًا منهم إلا "يوسف"

ابن جيرانهم، الذي يصغره بثلاث سنوات.. وجده جالسًا، وتفوح من ثيابه المتسخة رائحة (بول) طازج.. تحتقن عيناه بشيء أكبر من البكاء؛ فما كان من "عيسى" إلا أن حمله بالطريقة التي تكفي لئلا يتسخ بما يرشق الإنسان في تلك البقعة به وجه الأرض كل يوم.

– هذا ما يأمرنا به إمام مسجدنا كل يوم!!

– وهل هناك من فكر بطريقة يختبر من خلالها أخلاق ذلك الرجل الذي يأمركم بالكثير، وما إذا كان قادرًا – بكونه إنسانًا – على الصمود أمام جسد رفض السجود كبقية تفاصيل الحياة؟!!

– لا أعرف.. إنما يأمرنا بأن نكون حذرين من أن يمسنا ما يخرج منا.

– هل حدثكم ذات يوم عما تحملونه من شعور يدعو للاغتسال ألف مرة؟ هل قال لكم ذات يوم كيف يمكنكم الاغتسال من كل الجنابات الفكرية والأخلاقية التي ترشقون بها أنفسكم كل يوم!!!!

22

رياح العبث تلك، وغبار الفوضى لم يجبرا "عيسى" على البحث عن منفذ الخوف حين عاد ليكتشف ما خلفته زوبعة وهمه في المكان، تلك الغريزة التي يعبر عن كينونتها الهرب من المجهول إلى المعلوم، والاستعداد الضمني لخلايا الجسد لتلقي الضرر دون محاولة تفاديه، فهذا الأخير عادة ما يكون حالة من الارتباك التي تصيب تماسك الجسد وثباته؛ بعد أن يتقهقر الإنسان إلى الحالة الجسدية المادية المحضة.. فتصبح مسافة الـ (بين) التي تفصل

بين الحالة الواقعة وما قد تتحول إليه مضحكة.. جدًا.

– الخوف لماذا؟

– أخافك.

– إن عرفتني فلن تخشاني!! غير أنني لم أسألك عمّن تخافه؛ إنما لماذا تخاف؟

– كي أحرز نفسي.. فأتخلص؟

– ممن؟

– لا أعرف...!

– باب الخلاص واسع لكنه مخيف أيضًا.

– لا أفهمك؟

– الحياة مكان وزمان اللا مقدس يا بني!

– أتخاطبني كأب؟!

– تصبح كذلك إن تجاوزت روحُك حدود جسدك، ولم تتنازل عن عقلك للوهم.. فتتحول كل تفاصيل حواسك إلى أوثان.

– وأحلامنا؟

– غير مقدسة، كحياتكم الصغرى إن امتلأت بالأوثان.

– كيف تسمح بذلك؟

– هل تعتقد بأنني بهذا الحجم؟!

– لا!! غير أنني أعجب من كونك لا تكترث.

– بقدر دخولي لحياتكم كأفراد، يكون خروجي منها كقطيع!!

– إذن لماذا تقتحمها؟

23

اكتفى "عيسى" بإدراكه لجمال المشهد، ولم يصل بوعيه إلى الحذر والبحث في نهايات الأشياء. أعاده لأمه فانتهى ذلك المشهد طفوليًا – أيضًا – بأن تعهد لها بألا يذكر لأحد ما حصل لابنها، خوفًا من وصمة عار قد تطاله لما بعد سن النضوج؛ فأوحى لـ "أم يوسف" بكتمان السر، فكافأته من النقود بما لم يكن يحلم به ذات يوم من أيام العيد، فالصدف أحيانًا تتجاوز بالأفكار أهدافها المفترضة، وتتحول النبوءة إلى أرباح، هناك تمامًا تخلقُ الحاجةُ بالرغبة، وتوحي بما يسدها.

– لكنك لم تنتبه للوهم بأنه..... وهم !!!!

هي الحياة!! هرم وجهها الأول يكون بمقدار اختفاء وجهها الآخر بين تجاعيد الفراغ المشاع؛ فيتساقط الوعي على وسائد الليل دون قصد، عاد لذات المكان دون أن يرد في وعيه السبب الذي يدفعه للقيام بذلك؛ ليجد أن المكان المزدحم برعاة يردون على (الدحل) ليرشقوا أجسادهم ببعض الأوهام البعيدة.. حين تتشكل بصورة امرأة كاملة، وفتيات يبحثن عن رجل حلم يذهب ظله لغاية غير معلومة الامتداد؛ وجد أن المكان يخلو من مرتاديه، كذلك الأطفال الذين هربوا من روايتهم المصطنعة لم يعودوا للبحث عن مخلوقهم، لذلك؛ كانت تلك مهمته التي شغلته عن كل شاغل آخر.. فقرر أن ينهي تلك الحكاية إلى الأبد بدخول أخير.

24

منطق الحاجة منطق دائم في مسرح الحياة المفتوح، غير أن الحاجة تصبح ماسة أكثر في لحظة ليس للعقل فيها صوت يسمع، وعلى ذلك المنوال: كانت ملامح الأب الثقيلة تزدحم بحالاتها المختلفة وتناقضاتها على أبواب الحضور عن كثب، وتدفع المخاوف من اللقاء إلى أن تتوالى على أبواب المشاعر المشرعة...!

– يمه.. ما راح يزورنا أبوي في يوم العيد؟

– إن شاء الله.

– تقولين لي إنه راح يشوف أقداره.. بس الناس تقول إنه راح مع زوجته الثانية؛ لأن أولادها واجد وكان يحبها أكثر منك.. طيب ليه ما يستأذن.

– الرجال مهو لازم يستأذن مرته.

– حتى وإن كان يبغى يغيب؟

– يا "وليدي" اترك الهذرة ونم.

– "يمه".. ليه تخافين من أسئلتي؟

– لأن الأسئلة ذيابه أخاف تاكلك.

– أعرف؟

– تعرف!! ويش اللي تعرفه؟!!

– أعرف اللي تو قلتيه.

– وشلون عرفت اللي قلته.. من علمك هذا الكلام؟!!

– أبوي.

– وين شفته؟

– تكلمت معه.

– متى؟

– كل يوم.

– الله يسترني يا وليدي من راسك.

– يمه.. أبوي صورته تكلمني كل يوم بالليل.

– الله ياقاك الجنون.. أنا عرفت إن الصورة إنت اللي سرقتها من الكبت!!

– يمه.. ليه الناس تسرق وجود بعض؟!

– والله لأذبحك مرة ثانية إذا سويتها.

غفا الجميع ليلة العيد تلك إلا "عيسى"، لم يكن باستطاعته أن ينام.. ظل مترقبًا لقدوم والده، القدوم الذي ألبسته له أمه ثوبًا من احتمال، ففتح ذلك الإمكان باب الحقيقة للوهم كي يدخل!

– ليه تبكي؟

– وشلون ما أبكي وأنت ما تحبيني!

– وشلون تقدر الأم يا "عويس".

– اسألي حالك؟

– والله يا وليدي إني أحبك.. وهو عندي غيرك.

– أنت تحبيني لأني وحيدك.. مهو لأني ولدك؟

– أعوذ بالله من راسك!! يا وليدي لا تبكي نهار العيد، الرجال ما يبكي، رح استانس مع صدقانك.

– بشنو أستانس؟

– والله يا "عويس" ما عندي اللي يكفيني.. إنت تحسب إن عندي شي ذاخرته عنك يا وليدي، اللي عندي عطيتكْ إياه، ولها الحين منت راضي، ويش تبي بعد.

– أبي أبوي؟!!

– آآآخ.. يا ويلك من الله!!

– ليه ويش سويت؟

– إيييه يا "عويس".. يا وليدي.. ما أعرف من اللي سوى!!! بس

يمكن صار عنده شغل!

لم تشأ الأقدار أن تجلب الأب الغائب؛ لتجعل من حديث أم "عيسى" حديثًا صادقًا، ولم يمكّنها الفقر من أن توهمه بأن أباه قد مر ليلًا، وترك له قناع فرح يضعه على وجهه صباح العيد – كما يفعل غيره من الصبية؛ لأنه إن حدث سيكون ذلك القناع رخيصًا لا تصلحه كل النساء اللواتي يمتهن العطارة في تلك البقعة الفاسدة.. مهما كن بارعات.

كان عيسى يحتضن فقده و دموعه كل ليلة تمر بعد ذلك، حيث يختلق لها من الوهم ما يكفي لكي تنهمر، يتذكر أن أبًا له لم يره إلا متجهمًا في صورة وحيدة لا تحمل أكثر من اللونين – الأبيض والأسود – ليعبرا بشكل جليّ عن ألوان الذاكرة، وهما – أيضًا – الباعثان لجثث المخيلة أن تحيا من جديد، كانت تلك الصورة التي تحتفظ بها أمه وسط كنوزها التي تعفنت جراء ما أصابها من تحولات، فقد كان يغافل وعي أمه؛ ليسرق تلك الصورة فيحدثها بأشياء كثيرة لا يعرفها إلا هو ومن يقطع ليله يئن من الفقد، حين اخترع موت والده في نهاية مطاف ليلة ما؛ توقف الحديث.. فلم يعد يأتي عتبًا، فاكتفى الاثنان منهما بما يتقنه، فالأول يتقن الصمت المستفز للمخيلة، والآخر يتقن الدموع التي تغسل ثياب الروح من الهموم فتجعلها أكثر بياضًا مما هي بالفعل!! اغتسلت روح "عيسى" بأنواع مختلفة من البكاء، بعد أن تيقن أن البكاء الحقيقي هو ذلك الذي لا يستطيع عنده إيقاف دموعه من الانهمار.

25

المفارقة دائمًا هي أن حدس المرأة إن تعلق الأمر بممتلكاتها يكون أكثر نفاذًا إلى عمق الحقيقة، وهكذا لم يحتج الأمر إلى أمد أطول حتى كشفت الأمر أمه، وقطعت دابر ذلك الحديث الممتلئ بالأسئلة المتمردة بإخفائها الصورة في مكان لا يعرفه غيرها!!

فكان الختام..... عتبًا!!

– أحببت صمتك كثيرًا!!

– لأنه يمنحك فرصة صنع الإجابات.

– لقد تحدثنا طويلًا.

– وبما يكفي لأن تكبر.. فلا تنسى.

– لكنني ما زلت أشعر بالبرد يتسلل إلى داخلي.

– أليس لديك ما ترتديه؟

– ليس أكثر من فقدك أرتديه صيفًا، وحين يداهم المكان برد الجفاء.. كيف أفعل وأنا لا أجد لي من الحب قميصًا أرتديه.

– لم أفهم ما تقصده.

– لا أريدك أن تفهم، أن تشعر فحسب!

– بالبرد؟

– ربما.. أفضل!!

كان هذا هو الحديث الأخير الذي انتهى حين جاءت أمه على حين غُرة، لتكتشف الأمر مرة أخرى.. بأن ابنها قادر على الوصول، فاختفى هو إلى الأبد.

26

ما عرف أحد من الحادثة أكثر من أسبابها المصطنعة، وأنه وجد معلقًا من قدمه ورأسه إلى الأسفل.. غير أن أمه كانت أكثر معرفة من الصفيح، فكانت إجابتها لا تتغير حين تُسأل لتجيب:

– ككل أشيائي التي ترحل مبكرًا!!

27

السقوط هو كل ما تؤدي إليه الجهات المحيطة بالقمة..!!

– أمي؟

– سم يا أمك.

– حياتنا أنا وإياك تشبه هذا السواد الذي يغطي سما هذا الليل الواسعة.

– هذي السما لنا... أنا وإياك بس، ليلها الطويل تملاه نجوم أحلامنا، وهذي الأسباب اللي تخليه فتنة!!

– وهذه الشهب اللي تسقط؟

– بعض أحلامنا.. إذا ملت طول الانتظار.

– ليه تسقط؟

– آآآه.... نم يا حبيبي.. فالوقت تأخر.

تلاشت الذاكرة بعد أن أعادت على مسامعه هذه الكلمات.. التي تبادل عطشها وأمه.. وسط الظلام في ذات الليلة.. التي حلم بها ذلك الحلم...!! وهناك علا صوت الفراغ، وبقي المكان؛ لأن الأماكن التي يلتقي بها الإنسان نفسه وحدها مقدسة، حتى إن قادت الأقدار

الصدئة بعض تفاصيل حياته إلى غير المتوقع! بعد سنوات من الانتظار، أصبح عبور "أم عيسى" آخر طريق من طرق الأسفلت التي تفصلها عن أملها المستلقي بالقرب من ذلك "الدحل"، الذي فرض زحف المدينة عليه جهات أخرى غير جهة الجنوب، لكنه ظل "الدحل الجنوبي".

تقول.. إن بداخلها ما يقودها إلى نهاية مطمئنة تشعرها بالحرية والحياة، فلا تكون إلا هي بلا غبش أو رتوش، وهذا ما يجعلها تحمل سلة أشيائها بطمأنينة، متيممة شطر ذات الفراغ الذي كان يتسع لأحلامها حينما يطول بها المقام، فتسقط مرهقة شهب سمائها كلما وخزها الندم على تركه يعبث بأقداره الرثة دون أن تردعه، كانت نهاية مطافها المكان الذي كانت تقطنه وابنها قبل زمن، والمكان ذاته منطلقها للعودة إلى حيث تسكن في بيوت الأسمنت، بهذا المشهد تعرف تلك الأيام. كان ذلك الطفل يشبه كل الآمال النزقة، التي يأتي فقدها... مرًا، وتترك نفسًا حزينًا لا يُرى. كانت تلك السنة التي بلغ حزنها على ابنها الثلاثين!! تلك السنون كانت كفيلة بطمر بيوت الصفيح التي أوجدتها المصادفة، ولم تطمر الأسئلة رياح الزمن، إلا أن الفراغ اتسع فلم يعد لرائحة أهله ما يكفي لبعثهم من جديد، فقط على مسافة غير متشابهة قبر ذلك الطفل "عيسى"، ذلك القبر الذي تتبعثر حوله بقايا بيوت الصفيح، وقد ترك على جسدها زمن الوهم لونًا داكنًا لا يختفي.. إذن المكان بلا زائرين سوى تلك المرأة، بعد أن تحول قاطنو بيوت الصفيح عنها إلى مدن الزجاج والظل، فأحكم الوهم بيديه على عقلها زمنًا تغيرت خلاله الحياة، وأصبح الوهم يأتي منظمًا بعد أن تركت له الحقيقة بيتها وغادرت جهة اللا مكان.. فهاجروا كالقطيع!

28

– الحقيقة.. بلا مكان.
– الحقيقة.. بلا زمان.

29

لوحدها تعرف رمال أقداره التي ما زال يتوسدها، وبرغم حديث الليل الذي يقول إنه لم يعد هناك؛ يرقد "عيسى" في البيت الذي تحجب سقفه السماء!! تتذكر أنه حاول خلع قناع طفولته ففاجأه العمر بملامحه الجديدة المشوهة، وسقط وسط دهاليز احتمالات بلا نوافذ تُفتح، بعد أن تعذر عليه ذلك، فلم يعد لعملة صوته في بيتها من رنين!! فقد كان الغياب المفاجئ أكبر من سماء صدرها الرحبة.. حاولت.. بعد يومين من الصمت.. اللحاق به، فلم تستطع؛ لأنها كانت قد اعتادت على أنه دائمًا كان يصل إلى نقطة الزمن الأولى، بينما هي لا تزال هناك؛ حيث الوهم هو القاسم المشترك بين جماجم من يقطنون ذلك الشتاء الدائم، الذي يدّعون أنه مدينة يملؤها الضجيج.

– إنه الفراغ الدائم، وليس له من ملامح تذكر، لذا قد نجده أينما ذهبنا.
– إلا صمتها.. كان مكتنزًا.
– وصمت بالجنون لموت ابنها الذي وجد معلقًا من قدمه في

داخل "الدحل" الجنوبي، والبعض يعتقد أنه شنق حاله، آخرون يعتقدون أن السيد "شوّر" به!

– وأين هي الآن؟؟

– قتلها كثيرًا رحيل أشيائها مبكرًا.. لكنها لم تمت، تعود بوهمها إلى حيث زاوية تكفي لجسدها فقط في بيت أحد فاعلي الخير.

– ألديها ما يكفي؟؟

– كعادتها تحتفظ بما يكفي لغيرها ولها من كل شيء حتى الحزن.

– لذلك.. عباءتها فضفاضة بعض الشيء.

– ربما.

هذا هو عزف مخلوقات المصادفة، العزف الذي يثيره مرورها الثقيل على المكان، كانت المسافة كل يوم تزداد طولًا بين جسدها المتهالك ومقبرة الحلم، أليس بمكنونات الغياب تكشف حقيقة المسافة عن ساقها، وتؤمر الاتجاهات بالسجود؟!!

كان لتلك المسافة التي تقطعها كل يوم أن تطول؛ فازدادت حاجتها لمحطات توقف كلما تقاطعت الأزمنة على جسدها العتيق، تتلقف من رياح "السموم" نفسًا جافًا، وتدق على شباك الذاكرة بأدب جمّ؛ لتجتمع في ظل "سدرة صدرها" كل قبرة بلا وطن.

– إلى أين تتجهين؟

– إلى حيث من تركت هناك.

لم تشر ملامحها إلى مكان، لكن صوتها اختفى قبل أن يكمل أين موعدها... لتردد في سرها "تمامًا خلف تلة الهموم المرتفعة تلك.. في القلب":

– بمن ستلتقين؟
باغتها الصوت مرة أخرى:
– به.
– من؟
– الأمل الذي شُفيت منه بيأس.
– فحسب؟
– والفراغ.
– وحدها طريق الجنون بلا مسافة.
لم يؤلمها هذا السهم الطائش، حين أصابها.. فأجابت:
– لعلها أقرب.
– الطريق؟
– نفسي ولو بالقليل.
– أيكفي ذلك؟
– وأكثر.
– ....

30

كانت دقائق اليوم الموعود غير متساوية، فهو الحزن.. له سمة التكاثر العمودي في حياتها، فالمرأة تتقن الحزن كجزء من كيميائها المعقدة!

31

تساقط وعيها على وسادة ليلها دون قصد؛ لأن حقيقتها بوهمها الذي تشعل له شموع بكاء مرير.. ليس لنوره من وهج أو بريق سوى أنه كان يلامس أسماع المدى، كأنين خفيض يحي رماد وجوه تعرفها وحدها.. وتنتهي!

32

قضت فصل عويلها وإياهم، وهمت لذلك اليوم الجديد من الحنين – كعادتها – حين تعود وتنسج ليومها القادم دموعًا تفي بغرض الدفء، وبعويل يليق بمقام فقدها الذي كان يبتعد إلى أكثر من بيت الوهم، الذي يقطن الضفة الأخرى من الذاكرة، كان خروجها الأخير أيضًا... أكثر شحوبًا، وبملامح صلبة لا تتكسر، لذلك احتاطت بعباءتها الشتوية الثقيلة، التي كانت دائمًا تفي بغرض الحزن، وتأتي بالجديد...

أمرها غريب – تلك المرأة – لدرجة تجعلها تصنع كل أشيائها بوفرة.. تكفي لها ولغيرها.... الدفء.. الخوف.. الغربة.. وأكثر!!!! حفرت بالقرب من قبر ابنها حفرة وألقت بها ما حملته من أمتعتها حين جاءت، بعد أن طال عليها الانتظار، ودون أن يشعر بها أحد سوى الوهم الذي مر عليها قبيل المغيب، وأكمل طريقه نحو الشمس بعد أن كان قد أزف بها العمر.. شعرت بالمغيب يعبر وحده سماء

الفراغ... كنيزك مشتعل... فغاصت الذاكرة بالرمال، واختفت هي – أيضًا – في الفراغ دون ماء.

انتهى

* * * *

رُزنامة الظل

(اعترافات... لفتى مفلس)

كان اليوم الثلاثين بعد موعد عودته، وليس أكثر من القلق ملمحًا يلف الوجوه، ويجعل من إيحاءاتها أكثر صلابة من الصخر... أمي التي أخذ الانكماش منها ما أخذ، فأصبحت الحياة تتآكل في أطرافها وحواسها، فلم تجد لها منفذا لكي تخرج من نطاق باحة بيتها التي تضمها وصغار الجدي.أما والدي، الذي بحث عمّن يحتضن تكسره وتلاشيه؛ فبعثه اليأس إلى أن يعمل أسفل الشمس حتى احترق ظله.

لم يعد... وكان ذلك يكفي!!

آنذاك تحركت أجراس الزمن في داخلي، وأيقنت أن الحياة سوف تتشح بعد يومنا هذا بلون أكثر صفرة عما كانت عليه من قبل؛ لتعيد تأكيد صحة المعادلة، وأن المعطيات سوف تنتهي إلى ذات النتائج، وما يكمن وراءها من ألم.. تلك هي إذن المعادلة الأزلية التي توازي حركة الزمن فتنضجه.. كانت الليلتان قد تكفلتا بتغيير حركة النمو بداخلي؛ فأمسيت أعرف أكثر مما يجب، وهنا مكمن الخطر. كان سر غياب "صفوق" الذي كتمته عن والدي لما بعد أسبوع من رحلته؛ قد جعل العاطفة كاذبة خادعة بما يكفي لأن تتحول شيئًا فشيئًا إلى جريمة، ليس لدم الندم والاعتراف أن يغسلها، فصدفتنا تلك كانت ككل صدف المراهقين.. حين يجدون أنفسهم على طريق موتهم سائرين، ولا يكتشفون ذلك إلا بعد أن يروا وجه الموت الجاف وقد أطل عليهم؛ بعد أن أصبحت المسافة لا تسمح لهم بالرجوع. ويا لتلك الصدف.. كيف تحمل من السّم ما يكفي لقتل كل أمل يختبئ بزاوية من زوايا الروح.. يلجأ إليها القلب لحظة يأس.

كان الأمر قد تم وفقًا لخطة معدة مسبقًا ومتفق عليها.

قبل أربعين يومًا من هنا.. كنا في طريقنا عائدين من صلاة الجمعة، لم نصل جمعتنا في مسجد حيِّنا كما اعتدنا، إنما ذهبنا لنستمع لخطبة شيخ كان قد أصبح اعتلاؤه المنبر مسألة دارجة، تأتي بالمريدين الباحثين عن موضتهم. في هذه الحياة لكل رموزه، وكغيرنا من المراهقين كان لنا – أنا و"صفوق" – رموزنا، التي تحمل من زيفها ما يكفي لأن ننتهي بلا حلم، فعلى مقربة من حدود بلادنا، ثمة من يهتفون لرموزهم الوثنية.. كما كنا نهتف نحن لرموزنا التي تحمل صولجان الله بيد، وبوصلة الشهادة باليد الأخرى، أما ما يبقيه لها القدر؛ فنرميه أسفل أقدام أحد الأمراء الباحثين عن ممالكهم بما يتركونه من هبات وعطايا.. تمنحهم القدرة على الضحك. لم يبق لدينا من اللحم ما يكفي لكي نقدمه لأصحاب المعالي وجمالهم. ويالها من بوصلة نتبعها على غير هدي، فمن فلسطين إلى أفغانستان إلى السودان فالصومال، ومن ثمة العراق بعد أن اتجهنا للجهة الأخرى من الأرض، وبرغم كل تلك المسافات ووعثاء سفرها؛ لم نصل بعد!! أهلكنا غبار الجهاد فألفناه سكينًا مخبأة نلجأ إليها حين يأس.. وسيلة انتحار فعالة لها من القبول الاجتماعي ما لها.

وصلنا ليوم حشر معلوم؛ فوجد التائهون طريقهم بسّراجه، كان ذلك الخطيب أحد رموزنا التي وجدنا أنفسنا نتبع بعضنا للحاق بها دون وعي يفرز الأسئلة اللازمة، التي تفرض بدورها الإجابات اللازمة. لم يسعفنا هذا القدر من الشّح بالوعي لنسأل بعضنا سؤالاً كـ: من أين جاء؟ بشكل مختلف، لذا كانت الظلمة تأتي بظلمة أشد، والمحنة بما يستعصى حله إلا بخذلان، وهنا يصبح العجز في التكوين داءً عضالًا لا يسعفنا لكي تشرق شمس.

– كل تبن ولا تبرير.. هذا أشرف منهم ومنك.

– إلا يعقب والله يا هالوجه وجه "البزرنجي".. الله يلعنه ويلعن اللي يصلي وراه.

– قلت لك كل تبن وخلك رجال.. وبعدين حتى لو صحيح الله يقبل التوبة.

– يا سلام... يقبل التوبة؟!! ألحين كل واحد يبغى يسرسر يمسح وساخته بالدين؟!! بكيفكم هي... إلا أنا أقول هذي قلة حيا.. خلنا نمشي نتغدا أحسن من المشي ورا هالعربجي السربوت.. والله يا وجهه يطير الرزق ولا به حتى الما.

يبدو أنني لمست جرحًا بأقصى صدر أخي.. لم أكن أعي مكانه وحجمه إلا حين وضع يده على رقبتي محاولًا خنقي؛ بعد أن ألصقني بحائط المسجد، فاجأني حين ارتد رأسي من على الحائط لقوة الضربة على رأسي من الخلف بوعي لم أكن أمتلكه، فأيقنت أنني قد أفقد حياتي إن تماديت أو على الأقل كرامتي بسبب هذا الخطيب، لكن الضربة ذاتها ساعدتني على أن أرى الجهة التي سيأتي منها الغد... وتذوقت طعمه:

– ويلك... كم أنت.... قاسٍ ومر!!

– أنا يا كلب؟!!

– لا... لست أنت.. بل أنا.

– تستاهل.

– أي شيء.. القساوة أم المرارة أم... إنني أخوك؟!!

– تستاهل أوكلك الجزمة حتى تتأدب.. يا قليل الأدب.

– سأمضغ كل شيء حد السأم.. فاطمئن... "تكفا يا أخوك.. خنقتني".

– قلعتك... يالله طس.

تركت المسجد عائدًا تحت شمس الظهيرة، أمسح ما يختلط من دموعي بالعرق، محاولًا أن أكتشف الشمس بأي لون ستصدع على بيتنا غدًا، كان حزني يحمل من السكينة ما يحمله أخي بعد تلك الخطبة من حماقة ورعونة، لا يمكن لجسدي الضئيل أمام الضعف أن يقوى على كبح جماحهما، كان الاختلاف فيما بيننا اختلافًا جينيًا؛ لذلك كانت المفاهيم التي أحملها لا علاقة لها بمفاهيمه، حتى الدموع التي أرقتني لا تشبه دموعه التي كان يذرفها بعد أن أسمتع لتلك الخطبة اللزجة، لم تكن لدي القابلية كما هي قابليته على التأثر بقريع الطبول والشعارات وكلمات الحماسة التي كان يرددها مساعد الخطيب الأشبه بالمهرج الفاشل في سيرك رخيص، ردد من الهتافات ما يكفي لأن يبكي الجميع قبل أن يفقد وعيه من شدة الجزع على إخوانه المسلمين الذين تفرمهم جنازير المدرعات السوفيتية وهم يرددون "الله أكبر ولا إله إلا الله". أغراني الفضول حين سقط مترنحًا أن أنظر إليه عن كثب؛ فاقتربت لمسافة تكفي لأن تحتفظ حاسة الشم لدي بحموضة رائحته النتنة، كان شحمه قد أسخنته الشمس فتخمّر كأفكار الحضور.

ضجّ المسجد ببكاء المراهقين على أثر تلك الحادثة، وكان من بينهم "صفوق" الذي كنت أستمع لأسنانه تصطك على بعضها من شدة الغضب والحماسة، بينما كانت تنشغل عين الخطيب الذي كان يتقن الهدوء والثبات بمراقبة جمهور المصلين بشكل لا يوحي بالثقة والصدق.

لم تكن المسافة التي قطعتها متجها إلى بيتنا ببعيدة، فما هي إلا حزمة دموع لا تعد؛ لأن الألم أكبر من أن ينهمر.. توقفت سيارة "صفوق" إلى جانبي وقال:

– يالله تعال اركب إنت ووجهك.. الشيخ اللي مهو بعاجبك عازمنا على الغدا.

– يا بن الحلال غدا الوالده أحسن.. رُح إنت لشيخك أنا رايح البيت.

– ويش بلاك إنت زعلان.. الشيخ قال لي أجيبك معي.

– يا أخوي.. ويش عرف الشيخ بي بعد ؟!! رُح بس الله يقنعك بركته وخلني.

– تعال وأنا أقول لك بس.

ركبت إلى جانبه دون أن أنظر إليه؛ فأخذ رأسي بذراعه وضمني إليه بقوة وقال:

– أبغاك رجل يا أهبل!!

– ويش هالرجولة اللي تجي بالمضارب يا "صفوق".. الله يسامحك يا أخوي.

– إنت الله يهداك تطلع الواحد من طوره تصير توز.

حدثني خلال ذهابنا إلى الوليمة التي أقيمت على ما تبقى من شرف الشيخ لدي، وكيف أنه انتبه لنا حين كان يعتلي المنبر؛ فتوسم بنا الخير، لم نطل المكوث هناك حتى عدنا بالكثير من الأحاديث والمسوغات للذهاب إلى الجهاد في أفغانستان، فالحديث عن حور العين وقبلهن المؤمنات الجميلات اللواتي ينتظرن أحفاد الخلفاء وبقية الصحابة الشجعان للزواج والارتباط بهن، حديث مغرٍ يدفع بالمراهق إلى أن يعيد النظر في كل ممتلكاته التي لا تتسعها الدنيا.. بعد أن أصبح المثال بالنسبة إليه أكبر من أن يحتمله جسد

من لحم ودم، تشبع بحثنا المزمن عن المثال بهذا الرمز الملتحي إلى أكتافه، دون أن نعي من أين جاء؟ ففي كثير من هذه الأحوال يصعب على وعينا أن يحل لغز التكوين لهذه الرموز، وبالتالي؛ فإن محاولة التحليل لها عملية منوطة بالفشل منذ اللحظة الأولى.. إلا أن كل ذلك لا ينفي أن الحول بعينه يبعث على عدم الارتياح والشك الدائم بمصداقية عكر صفوها دجل فاضح، وندبة وسط جبينه تدل على ماضيه التليد في الحارات.

لم ترتبك الأشياء بداخلي، لذلك لم أسقط بالرغم من الهزات المتكررة التي استطاع الشيخ أن يحدثها بطريقة سرده، ولعبه على العامل النفسي للمراهق، غير أن هزاته تلك كانت تفوق صلابة الوعي لدى "صفوق" وقدرته على الثبات؛ فتشققت ذهنيته عن أحداث جسام، وانعطافات خطيرة أخذت أحلامه إلى شكل من التكوين يختلف عن تلك الأحلام التي كنت أستمع إليها منه كل ليلة قبيل النوم، فكان أن كشف لي سر السقوط الذي لم أصب به بعد تلك الجلسة؛ فقد عاد مرة أخرى إلى المسجد بعد أن أوصلني إلى المنزل، وقد حان موعد صلاة العصر آنذاك، كان الشيخ قد وعده أن يؤم الناس في صلاة العصر؛ لذلك عاد "صفوق" برغبته متحمسًا لكي لا يخسر من وقته شيئًا بغير جني الحسنات من خلال الارتباط بتلك الرفقة الصالحة - كما كانوا يطلقون على جمعيتهم، فتحمس حتى تخثر برأسه الحلم؛ فتحول العشق إلى حتف مؤجل.

في تلك الليلة التي جاء فيها إلى البيت متأخرًا استأمنني على سر قراره بالانضمام إلى صفوف إخوانه المجاهدين في تلك الأرض اليباب، أفزعني الحدث والوجه الجديد للفتى الحالم بشهادة الطب... فبكيته حين سألني عن سر دموعي؛ لم أجرؤ على

أن أجيب بغير السعادة والفخر، بينما كانت الإجابة أصعب من شجاعتي؛ فكتمتها حتى حين أكملت بكائي أسفل غطائي طوال تلك الليلة وأيامي اللاحقة!!

غفا إلى جانبي حين كانت أنفاسه دافئة، بعد أن تمنى لي أن ألتحق بشجاعته في المرة القادمة حين يعود، ذهب بعد صلاة الفجر فلم يأت الصبح بشمسه التي اعتدنا على أشعتها؛ فغفوت إلى جانبه مرة أخرى بعد زمن، حين أصبح ما تبقى من ذلك الجسد حلمًا باردًا لا يقوى على الحراك أو التنفس... وتمنيت لما تبقى من أشلائه المحترقة وبكل ما أملك من دموع أن يلقى بوصلة تمنحه جهاتها وصولًا إلى آخرة تجمع جُسده بشكل يليق بنواياه!!

GMT 16:01

يشارف هذا اليوم على النهاية، بعد أن اتجهت شمسه جهة الغرب، لا أعرف له مكانًا على رزنامة هروبي الطويل، فقد مر دون أن يتسع نهاره للفرح كغيره من أيامي الفائتة، بعد أن تقاسمها الخذلان، فأمسى سمتها المزمنة والجامعة بين متناقضات لا تلتقي عادة في ظروف طبيعية، كأن الزمن هنا استثناء فريد، غيّر وجه الحياة بتغييره لأشيائها، وكان الهروب من بينها؛ فاكتشفت عدم جدواه، وأن الذاكرة لا يهزمها هروب!!

وصلت إلى هنا دون أن أجد من يعّريني في غرفة مظلمة بحثًا عن أفكار نزقة، فقد اعتدت على اجتياز جميع المنافذه بلا هوية..

هارباً من أمي وأبي اللذين لا يقويان على اللحاق بي حين أحلق من مطار وسادتي ليلًا إلى عالم سري مليء بتماثيل وأوهام عام دراسي ثقيل، ولا أجد يداً ما تجبرني على الكشف عن عورة أمتعتي التي أحملها معي، ودون أن أشعر بالخوف على ممنوعات ذاكرتي من أن تُكتشف؛ أمضي بين نجوم السماء متأملًا وجه الفضاء الفسيح، في صحراء لا تورث أبناءها إلا الجنون أو النبوة!! كان الله ينتظرني هناك كل مساء؛ أحدثه بما أشاء فيحييني على طريقته، فيرسل لي نيزكًا يخترق وهجه السماء الداكنة.

ما زلت – أنا – ذات الإنسان منذ بداية سنين الحلم، إلا أن شيئًا ما قد تغير تغيرًا يفوق الفهم، منحني سمة تميزني في عبوري لمنافذ الحياة عن غيري، فلم أشعر يومًا ما بأنني في طريق السفر وأثقل ما أحمله معي حقيبة وحدتي، إلا حين بدأت أقترب من سنيني المتأخرة التي منحتني ثوبًا بلا أكمام.

تعود بي الذاكرة لآخر يوم لي هناك، وكيف استطعت خلال سيري إلى باب الطائرة وسط كل تلك الفوضى والتراكمات أن أكون قادرًا على أن أقي كل ما يمت إلى وحدتي بصلة أيدي رجال الأمن ومن على شاكلتهم ممن يحملون أيدي مقدسة تمتد بأمر الله –على حد المعلن– لتصل إلى أعضائنا التناسلية ورغباتها، فالخدوش التي تتركها تلك الأيدي على تفاصيل أيامنا المتأخرة لا تختفي، فلقد مررت على كل تلك الحواجز – المتناثرة بشكل يدل على المنطق الذي يحكم تلك البلاد زمنًا طويلًا – مرتديًا أثقل ما يمكنني أن أرتديه؛ عساني أنجح في تجنب ما يثير غبار حزني، فالحاجز مفردة من مفردات أيامنا، نتقبله كقدر حين نلتقي أحد أشكاله المختلفة – التي يتخذها – صدفة في الطريق، أو حين

يلاحقنا كالأطباق الطائرة إلى البيت، لذا؛ فلا يمكن فهم خوفنا لأن عطشه لا يُروى.

تركت الكثير هناك، وتركني الكثير!! وكان لكل أسبابه؛ فرحلت، ولم يبق لي شيء يربطني بما تركت هناك أكثر من صور فقدت ألوانها، وأوراق لا يربط فيما بينها سوى الحزن والخذلان.

تأتي بأشياء قليلة لا أجدها هنا، ولكنها من الكثرة بشكل يفي بغرض العزلة في هذا المكان القصي في هذه الساعة من اليوم.

وبرغم أن المسافة التي تفصله وساكنيه عني لا تزال مسافة بعيدة بعض الشيء، فإن الجهد الذي أبذله لكي أتقن لغته كبير جدًا، فالذاكرة منفذ يمكّننا من الخروج عن واقعنا الذي نعيشه أمام أعيننا، وتترك لنا المخيلة عنان الخلق لما نريد من وقائع أو أحداث، واختيار نهاياتها، أجلس أسفل هذا المصباح لكي أتصفح أيامي التي كانت الأحلام بها هي وثيقة سفري الأهم والأخطر، أتصفح أوراقها وأضيف لها ما أضيف!

فمنذ الصباح اقتحمت دهاليز هذا اليوم باحثًا عن مجهول يزداد أثره تجذرًا في الأعما سحب ق كلما طال بي مدى الغياب، ولم أصل في نهاية المطاف إلى أرض الحلم المنتظر.

إلى هنا انتهى بي الحلم، فكان اليأس من الوصول إلى نهاية ما داءً لا شفاء منه، أهرب من ضياعات سابقة لضياعات قادمة تسكن شوارع هذه المدينة وقلقها، الذي يخفي عيونه تحت غشاء الضباب الكثيف.. إلى جهة الجنوب، ألتفت لأرى وطني متخبطًا وسط أغشية

سميكة من الـ لا عقل والـ لا منطق والجوع .. آخرعهدي به، يترنح كمن أرهقه الثمل، وأذاب من وعيه الكثير، فلم يعد قادرًا على السير بخطى ثابته، ولذلك؛ استبدلته بأوراق مبعثرة الأحداث والتواريخ ما إن تجاوزته هاربًا...!

* * *

(9 \ .. \ 1 .... م)

كما تهرب رائحة البُن الرطبة من "دلة" القهوة التي يفتتح خالي بها يومه كل صباح، بانتظار القادمين من أصدقائه، تداهم وعيي بسخونتها؛ فأنفض عن عيوني حلم الأمس وهمه، لأكشف عن صباح القلق الجديد ستائره، ألتقط بنظرة سريعة ما يطمئنني من مفردات اعتدت عليها تشاركني الصباح، فصغار الجدي لا تزال على مسافة ليست ببعيدة من زاوية "حوش البيت"، تلهو بـ"الربق" الذي يلتف على أرجلها، أراقب شغبها ومحاولاتها الفاشلة بالانفلات، وألعن ألف قدر، بعد أن ألمس قلقي من جهات الغد، وأين تأخذني.. أقوم بجميع الطقوس المفترضة؛ لألحق بمحاضراتي، أرتب هندامي بشكل يليق بطالب جامعي وأمضي مسرعًا.

يكون مروري اليومي على مجلس خالي قبل أن أستقل سيارتي متجهًا إلى الجامعة.. عادة ما أجد "أبو فرحان" جالسًا في زاوية المجلس مطلقًا تعليقاته العشوائية التي لا تخلو من السخرية من الجيل المترف – كما يسميه – على اعتباري من ذلك الجيل، وعلى اعتبار أنه أحد الجنود الذين أصيبوا بحرب النكسة، ثم تحول إلى "خوي" لدى أحد الشيوخ المهمين، فأصبح مهمًا – أيضًا – على

اعتبار أن كلب الأمير أمير!!

أحترمه بقدر ما أستطيع، وإن كنت لا أقوى على احتمال تلك التعليقات في البداية، عندما قدمت لأقطن عند خالي الذي عاد إلى الكويت، بعد أن انتهى احتلال العراق لها، عاد يربي أغنامه القليلة، بينما أصر والدي على أن يطعم أغنامه جوع وطني الفريد من نوعه، فأصبح موتها وطنيًا يليق بها كموته!! آثر البقاء هناك، ورفض عودتنا إلى هنا؛ فبقينا في المكان الذي سرق منه النهاية الهادئة، ومني البدايات!!

لم تكن القوانين الاجتماعية تسمح لي بأن أتخذ من "أبو فرحان" موقفًا حادًا، على اعتباره صديقًا لخالي من جهة، ودائم التغني بأخلاق والدي من جهة أخرى، إلا أنني كنت أحاول أن أتفاداه قدر الإمكان، حفاظًا على مشاعري كي تبقى في حالة اتزان، أما الآن.. بعد ثلاث سنوات مضت؛ كانت كفيلة بأن تروضني لكي أصبح معتادًا عليه كأحد الوجوه التي لا بد لعيوني من أن تتجرع قسماتها كل صباح. أتعرض لكل غيومه لكنني أنجح في أن أنهي لقائي به دون أن يصيب مشاعري بلل.

أنهي يومي الجامعي بما اعتدت أن أنهي به كل يوم آخر، أعود لأجد "أبو فرحان" لا يزال متكئًا، ويحدّث خالي بأمور تهم محترفي تربية الأغنام والإبل، عادة ما يكون هذا الحديث ممتدًا منذ الصباح الباكر، ولا ينتهي حتى حين عودتي، بعد أن أكون قد خرجت عن الزمن الذي يحكمهم لربع يوم، لا يكون فيه الحديث متعلقًا بأسعار الشعير، والاستياء من سحب الدعم الحكومي له قائمًا على أرجله لا يهدأ؛ لأن الناس هنا قد اعتادوا على ذلك، على اعتبار أن تلك الحيلة

هي الحل الأمثل لجعل وجودهم ذي أهمية قصوى.

أتناول وجبة غدائي صامتًا، وأتذوق أفكارًا متضاربة عن ثقافة بدوية بائدة، يذيب شايها كل الشوائب التي تسقط به على حين غفلة، أرتشف سخونته، فلا تؤثر بي؛ لأنها تكون قد فقدت وجودها وأصبحت بلا طعم.

* * *

GMT 16:02

تهتز غصون الحنين – ما إن تبدأ رياح الذكريات هبوبها – مودعة آخر الزرقة التي تستأذن هذا الليل القادم بلباسه الأنيق كي تنصرف، تاركة قطط الشوارع وكلابها، تعبث بأشيائها الحادة بلذة مفرطة، حتى وأن نتج عند مفترق الطرق المؤدية للصباح نزيف دم داكن ماتزال الطريق.طويلة بعض الشيء، وما يزال هناك وميض وطن!!

* * *

(8 \ .. \ .... م)

في الصباح كنت قد التقيت جارتنا "أم محمد"، وهي تهم بتجاوز عتبة باب البيت، تأتي بهذا الوقت من كل يوم؛ لتقوم ببعض الشؤون النسائية المتفق عليها مسبقًا مع زوجة خالي، فالصباح هو المساحة الأكبر للمرأة، كي تمتلك حريتها الكاملة،

التي لا ينتقص الرجل منها شيئًا؛ لأنها الفترة التي يغادر فيها الرجال عادة لقضاء شؤونهم.. تاركين لنسائهم حرية ممارسة دورهن كربات بيوت، وبرغم المسافة التي أجبرهن على قطعها الزمن في طرق المدينة؛ فإنهن استطعن أن يقين أنوثتهن البدوية الانصهار الذي جاءت به حياة "الكنديشن".

تسكن جسد "أم محمد" المتماسك شخصية غريبة، رغم كبر في السن اتضحت ملامحه بإمساكها عصًا تعلو بما يقارب السنتميترات قامتها متوسطة الطول.. تتكئ عليها، ولها فيها مآرب أخرى، ما زالت على قيد الشعور بأهميتها رغم مرارة الاقتراب من النهاية، التي جعلت من وزنها ثقيلًا على الاحتمال، من قبل جيل أتى طارئًا على جميع التفاصيل ذات الجذور الضاربة في الأعماق، هذه المرأة التي قطعت العقد السابع على حسب يوم ولادتها الذي يعود إلى يوم كسوف الشمس.. ظلت لزمن.. تقوم بكل ما يسد حاجة النساء من معلومات، وخبرات من الصعب معرفتها أو تداولها، تظل تتكلم إلي طويلًا عن يوم ولادتي، وكيف أنها هي التي قطعت حبلي السري، تقدم خدمات الأمومة التي حرمت منها – دون أن تعرف لذلك سببًا مقنعًا – بشكل مجاني لعل ذلك يمنحها الدفء باحتضان الجنين والشعور بامتلاك طفل، كأي مخلوق طبيعي، كانت أمومتها مشروعًا متاحًا للجميع وبلا ثمن، لذلك؛ ظلت رخيصة، لا تجد لها مشتريًا، خاصة بعد أن منعها انحناء ظهرها من ممارسة دورها المعهود.

أعنتها على الدخول إلى البيت، وكنت حذرًا بعض الشيء من أن تتسخ ملابسي برائحة الـ"غاز" الذي تحمله بيدها؛ لأن الجامعة كانت ميدانًا لا يقبل بتلك الروائح، ولأنها كغيرها من بنات جيلها

اللواتي يمتلكن حسًا نافذًا لكل الحواجز، فهمت ذلك وقالت لي:

– لا تخاف يا "محيميد".. ماسكتن "الجركن" زين، ما راح يوسخك.
– ما ني خايف يا "أم محمد".. بس ويش لك بها الـ "غاز" من الصبح؟
– يا وليدي وش دخلك بها السوالف، أمور الحريم ما لك بها.
– لا والله يا أم محمد.. ودي أعرف!
– ما يذبح القمل إلا الـ"غاز" يا محيميد.

كانت الفكرة تلك مضحكة بقدر مفاجئ، غير أنها مبكية بذات القدر أيضًا؛ لأن حجم معرفتها بالنفط ومشتقاته لا يتجاوز معرفة وطني به، عقود طويلة ولا تزال صورة النفط كما هي؛ مادة جيدة لقتل القمل لا أكثر!!

لم أجد إلا الصمت مهربًا، وكعادتي في الحديث معها لا أجد منفذًا للهروب، ولكي لا أدخل في قصة حياتي من جديد، وكيف أن أمي عانت في يوم ولادتي آلام مخاض غريبة؛ خرجت مسرعًا رغم معرفتي بأنها كانت تهم بمواصلة الحديث معي، ويلوح بالأفق البعيد وطني عائمًا في السراب!!

* * *

GMT 16:03

أناديه بصوت مرتفع، يعبر إلى الجهة الأخرى من هذه البحيرة الساكنة، التي يغذيها النهر برافد صغير، يسمح لها بأن ترقد على مسافة ليست ببعيدة، كأنها حزني!!

يتلاشى صوتي هنا وهناك، فيختلط بالصوت الذي يثيره تلاطم الماء بأجنحة طيور تسكن الأحراش، التي تنبت على أطراف البحيرة بعد أن أفزعها صوتي.

أناديه – مرة أخرى – بلغة لا يعرفها من هم حولي، ممن يرمون شباك همومهم مثلي لرياح الشتاء العاتية، لعلهم يصطادون أملًا صغيرًا بالوجود. أطلق بأكثر من قدرة حبالي الصوتية أن تحتمل، ذات الصوت الذي علمني إياه، فكان سورًا مانعًا لا يمنحني بابًا أصل من خلاله للنصف الآخر من الكون فأتذوقه، وأقف معه على أقدام المساواة، علمني في كل شيء أن الطمأنينة امتلاكي لمقدس خاص، وأن الله لا يهبط إلا بأرضه؛ لأنها مقدسة، ما زلت أحلم بالطمأنينة، وألا أحمله معي فزاعة للغيب، الذي يمتلئ به زمني، ولسكان الكرة الأرضية خلف حدوده. أحلم به وطنًا مقدسًا، لا يمسه القلق أو الجوع، يمنحني قدرًا كافيًا من الوجود، أتجاوز به جميع الصور التي تجعل منه بئرًا مقدسة، لا تنتج إلا النفط والأمراء وأئمة المساجد، والناس الذين يفترشون الجوع؛ ليحظوا بأقل قدر من الظمأ والخوف، أتجاوز أنني شربت منها حتى ثملت، بالفخر المزيف، والتاريخ الكاذب، ولكن الظمأ ظل لا يغادرني.

أنا هنا إذن!! بعد أن تجاوزت الحدود والأبواب المغلقة، بأمر

الله وولي الأمر، أحتضن وحدتي، وما تبقى من آثار ماضٍ جاف، ترك على لحمي جروحًا لا تندمل في مدينة يحتضنها الشتاء بقوة ليهدأ من روع شغبها وعنفوانها، لهذه المدينة موضع قديم يكمن بأوراق ذاكرتي، ليست لي القدرة على كشف أسراره، فقد وصلتها بعد زمن ليس بقليل من الترقب والانتظار، كان كفيلًا بتغيير كل شيء، وخصوصًا الذكريات التي أعلنت ثورة عارمة على النسيان، فأصبح للنهايات طعمها المرّ الذي لا يُنسى.

كنت أكتفي بحلم الوصول إلى هنا في وقت كان به أقراني – الذين لم تنجبهم شوارع التجهم والخوف – مثلي؛ يتفاخرون بالسير في شوارعها.

* * *

(7 \ .. \ .... م)

ها قد انتهت العطلة الصيفية وأنا أقف على أبواب المدرسة، كيف لي يا تُرى أن أقطع هذا العام الأخير في هذه المدارس الباهتة.

تبادل الجميع أحاديث الذكريات بينهم بتلقائية محضة، وباستغراب يمنعني من النطق. كانت مدينة الضباب – ولا تزال – المكان الذي يجمعهم بأحلامهم، فكانوا جميعهم سائحين بمرتبة الخمس نجوم، هربًا من شيء يطلقون عليه مسمى الصيف، أما أنا؛ فقد التقطت منهم حين التقينا ما يفوق قدرتي على الاحتفاظ ببعض تفاصيله الدقيقة، لدرجة تجعلني أشعر بذاكرتي متورمةً، كنت معتادًا على أن أمضي بتلك الأقاصيص الفاخرة لأمي وأبي؛

كي نشعل بها أحلام يقظتنا بشكلها البدائي.. حتى ينضجنا النعاس، عرفوا جهة الشمس التي صنعها آباؤهم فهربوا منها، أما أنا؛ فلم أستطع الهروب لأكثر من مسافة أقداري التي تأخذني لصحراء قاحلة، تجعل منها الحدود المغلقة دولة، تشكل وجهها بابتسامة لا يمكن الوثوق بها.

قطعت مسافة الصيف أرعى ما أبقاه الجوع والمرض وأسلاك المحميات لوالدي ووالدتي من أغنام، أتقبل الشمس خوفًا من أن أنتهي أنا أو والدي إلى ما وراءها، بعد أن ترك لنا أخي الأكبر "صفوق" شغبه ومحبته.. كي نتقاسمهما كل مساء، كان قد رحل بعد سماعه خطبة دينية ساذجة، مليئة بالوهم والخزعبلات والحماسة، وأعلن على أثرها – كغيره من المراهقين – عن انتمائه لصفوف الجهاد في أفغانستان ضد المد الشيوعي الذي سيغزو بلاد المسلمين، ذهب بحلم بسيط حولته جغرافيا السياسة – فيما بعد – إلى كابوس مفترس، وما إن خرج مهللًا ومكبرًا ليلقي ببعض الرمال المباركة على إحدى المدرعات العسكرية التابعة للجيش السوفييتي، حينها.. أيقن أن الأحلام تتقن الخيانة حين تتشكل في عقل المراهق على هيئة وطن ملتحٍ.

لم تحترق المدرعة كما قال له أمير الجماعة، وقتل بجرعة دينية زائدة، ليمنح لمقولة "الدين أفيون...." ختم الحقيقة!!

* * *

GMT 16:04

هنا بعد أن مضى من العمر الكثير، ولا يزال الهروب هو الهروب، تتسع حيرتي من كل شيء كلما خيبت المدن ظني، لأجدها مكانًا لايليق بي وبما تبقى لي من أحلام.. كي نلتقي، انتظرت كثيرًا ولا تزال الأسئلة مزمنة...!

– ترى أية مدينة ستكون بحجم أحلامي كي ألتقيها؟

أقول ذلك وأمضي في تأملاتي بمدينة تلتهم سنيني المتأخرة كغيرها من المدن الكبيرة، التي أدمنتُ تجاوزها، وأدمنت – هي الأخرى – التهام أحلامي كما يلتهم الأطفال قطع الثلج.

الآن... هنا...!

أستقبل بهدوء.. يليق بأول المساء.. جميع الأشياء المتفرقة تحت لون الغروب، بعد أن أخذ بالإعلان عن نفسه منفذًا أخيرًا للولوج إلى السنة الجديدة، يمر الزمن على جميع التفاصيل هنا شيئًا فشيئًا كالشيخ المسن الذي لا ينتظر في آخر العمر ما يفزعه، تأخذني الأوراق برائحة خوفي الكامن بها، لألتقط قلبي أو ما هو بمنزلته مني، وألقي به إلى أقصى نقطة – أجد ذاتي عندها – بألف اغتراب، لا ينتهي بي أحدها عائدًا إلى وطن، وأي وطن ذاك الذي لم يترك لي زمنًا تبتسم دقائقه بوجهي كل صباح، تركت كل زمن قضيته فيه ورحلت دون أن أترك لتفاصيله ما يدل على جهة رحيلي.. فلا

تلاحقني؛ لأنني على يقين من أنه ليس جديرًا بالذكريات، لم يبق من الأوراق التي تحتوي على أيامي السالفة بعد أن تخلصت من أغلبها إلا القليل، مما لم يفقد حبرها بعد قدرته على البقاء، برغم سُحب الألم التي تتلبد بها سماء زمننا.. كلما بلغ العبث بآدميتنا ووجودنا حدًا لا يحكمه عقل، بعد أن أصبحت الأفكار والمشاريع نتيجة كبرى لرغبة جنسية فاخرة، لا تعرف أن مظلات الهروب لا تصد مطر الفقر المنهمر خلف أسوار قصورها الممتدة.

كتبت الكثير وتركت للذاكرة الأكثر والأهم من أن يكتب؛ كي لا أشعر بخيانتي لها، أشعر بكل شيء تركته هناك يطاردني.. فيرتفع ضجيج الذكريات في حيز ذهنيّ ضيّق، ويزدحم الوجود لدرجة تسلبني كل وعيي، أفقد الرغبة بالانصياع والقبول، كأحد أولئك الذين ينتمون إلى الرفض انتماءً دينيًا لاعلاقة له بالعقل، تجاوزت الأسلاك الشائكة كثيرًا، وتركت على أشواكها من دمي ما يدل على مروري، خائفًا من الرفض الذي أحمله معي؛ لأن الرفض هو المادة الأكثر خطورة من بين جميع الأمتعة التي يحملها معه المسافر في أوطان الأقفال والخوف، فهي أوطان لا يمنح ظلها النماء والخصب، كلنا نرفض لنشبع رغبة مجنونة بداخلنا لا علاقة لها بمفهوم الإنسان كونيّ الذات، وأحيانًا؛ لأننا لا نعرف من أيامنا يوماً يخلو من المتاريس والحواجز الأسمنتية التي خص الله بها أرضنا دون سائر الأراضي، لتحكم أفكارنا ومشاعرنا وتدجّنها؛ لكي لا تسير عكس رغبة قائد ضرورة أو طويل عمر ما!!

نحاول بذلك الحفاظ على ما جُبلت عليه فطرتنا دون أن نكتشف أن جميع المعادلات الرياضية التي تسكن عقولنا؛ لا تقوى نتائجها على أن تشطر حبة برتقال.. فما بالنا بالذرة.

حسن إذًا...!

بقيت تلك الأحاديث لا تغادر ذاكرتي حتى بعد أن تحول ذلك الطفل بداخلي إلى رجل يبحث عن نصف قمره المفقود، وحين أصبح رجلًا يشبه جميع الرجال، ويؤمن بخيانة المواعيد.. اكتفى بابتسامة قاحلة، ونشيد صبابة يحاكي النشيد الوطني رخصًا، بعد أن انتهى كل شيء بوقوفه على رصيف خالٍ من العابرين أو على مقعد بمقهى منزوٍ لا يقصده زائرون.

إنها الفوضى الآن تعلن عن نفسها بداخلي وتستفز الارتباك والقلق!! فتتحول الأحداث إلى مشاهد مضحكة تثير من الشفقة أكثر مما تثيره من الضحك؛ لأن لغة الجبر هي اللغة الوحيدة لصناعة ثقافة الإنسان ذاكرة وحلمًا هناك، وليس الضحك إلا أبجدية من أبجديات تلك اللغة نتلقاه منذ الصغر ونكتشف عند النضوج هشاشة أقدارنا التي لا تسمح لأفواهنا بأن تمنع تساقطه..!!

* * *

(6 \ .. \ .... م)

خلف تلك الزرقة الهارية في الطريق إلى الشرق؛ كنت قد تركت طفولتي ترقد في شوارع مزدحمة بشيء من الخوف والترقب، وتنتظر أن أعود إليها كما وعدتها، محملًا بالأشياء التي حلمت بها، أشعر بقربها مني هنا!! وتخيفني الإشارة إلى أنها في منتصف القلب.

إنها... هي هي.. لم تتغير ليلًا، يفوق جمالها جمال كل شيء في عالم الزجاج، حين يثير تلألؤها في داخلي شعورًا ببراءة كامنة، تدفعني لأن أهيم في شوارعها المصفرة بالغبار مسافرًا بلا حقائب أو وثائق تثبت من أنا، وحدها علمتني كيف أكون حرًا مطلقًا.. دون ثمن، ترسل للمدى المشاع أضواءها الراقصة؛ فيرسل الليل فتنته العارية.

هكذا كان المشهد قبل أن تأتي الحرب لتصبح موعدًا غير مرتب حتى نفترق، اختطفني والدي الخائف من الحرب وظروفها المتقلبة.. تحت شمس الظهيرة، اتجهنا نحو الجنوب حيث يقطن وطني.

هربنا من ساحة معركة لا ناقة لمراهقتنا فيها ولا جمل، تلك المعركة التي أثار غبارها قائد عسكري "ضرورة" أراد أن يتجه لأرض الميعاد؛ فخانت بوصلته جهاتها، أفزعت أول طلقة مدفعية قبرات الصيف القلقة.. ففرت من أعشاشها، ولم تعد النظرات كما كانت سابقًا.. حين كنا نتبادلها دون أن نشم رائحة الخوف والدم.

في ذلك اليوم فقط سألتني لأول مرة: إلى أين أنت ذاهب؟ فتعثرت الحروف على عتبة فمي؛ لأن المدن لا تسألنا عن جهات رحيلنا إلا إذا أرادت أن تقتسم وإيانا اغترابًا ما، لطالما كان يداهمني قلبها بالحب دون أن تسألني ذات يوم إلى أين أنت ذاهب؟ في وقت كنت خلاله أحاول اكتشاف مفتنها مغمض العينين لأهزم التيه.

افترقنا آنذاك وكان الدخان آخر شيء رأيته، حين كان يتصاعد

بكل اتجاه. أحسست بها تبكي بصمت ثقيل، حين تركت على رمالها بعضًا من أحلام صغيرة؛ لأنها تعلم أن شغفي بها لم يترك بعقلي بوصلة تشير إلى الأماكن المحتملة، حدث هذا الجنون كما كان يحدث دائمًا حين ترسم حدودها لتحرسني!! لم أكن أملك ما يوجه مشاعري، غير أنني كنت بوعي كافٍ لترك شيء لها تحرسه في غيابي.. لحين عودتي، التي لم تحدث بعد أيامْ كما كنا نعتقد، كان حفظي لها عن ظهر قلب قد أنقذ الحواس من وعثاء القطيعة والبعد، كبرت معي كمدينة، وكمرحلة شرسة من العمر، تقفز الأسوار العالية لكي تطل على ما تخفيه غرف الظهيرة أو الليل.. فلا فرق، وما إن تلتهب رمضاؤها؛ حتى أجد أن الصيف يمسح كعادته دموعي المنهمرة حين أبحث عن ظل يتسع لجسدي الخائف والمتألم من العقاب.

ما زلت أذكر أحضانها حين ضُربتُ أمام الجميع، لأنني لم أردد ما ردده زملائي الطلاب في صباح شتائي، فما إن بدأ عزف النشيد الوطني، ولم أكن أحفظ جيدًا ما يجب علي حفظه؛ لأنني أرفض ترديده مجبراً؛ لأننا نسكن أوطانًا تعلمنا أن نخشى رموزها، لكنها لا تعلمنا كيف نحترمها، لم أكن عنصريًا بالإعلان عن انتمائي، كما كان أستاذي، الذي يعاني من سمنة وطنية مفرطة، لذلك؛ لم يحتمل كتف قناعاتي البسيطة والشفافة وزن انتمائه.. فتحطمت، منعني الألم من الحضور إلى المدرسة أسبوعًا كاملًا، كما منعني الألم من أن أبديه خوف العقاب الاجتماعي؛ لأن قانوننا الاجتماعي يرفض الهزيمة بجميع أشكالها، فكيف أصرح بأنني ضُربت؟ بقي كل شيء طي كتمان طفولي، ظهرت عوارضه بعد أسبوع حين أفقدني القدرة على النوم، فأعلن لحظتها أن كتفي قد كسرت، لكنني – وبرغم كل ذلك – بقيت محافظًا على صورة

أعرفها جيدًا وتعرفني بقدر المسافة التي تفصلني عن رمالها، التي ما زلت أرى أن جمالها يحمل الشيء الكثير من التطرف، خصوصًا حين تقبع أيامها على خوف من مجهول يثير في نفسها ألف لون من الحزن والأسى، لا أعرف متى وبماذا كان انجذابنا إليها؟ ولماذا ليس بمقدور نوارس أرواحنا هجرة لغيرها؟ هذه الجغرافيا العشوائية المشاكسة في كل ما يحمل اسمها من انتماءات، أجد نفسي دومًا جهتها على تساؤل لا يمكنني إرضاء شبقه، بما يهدئ من روع النفور الجماعيّ الذي يعاني منه سكانها، فأكتفي بإنشاء علاقتي معها على جفاء مؤقت، يزداد صعوبة كلما ازداد علو بنائه فنردد لبعضنا:

– على سفر أو عدة من أيام أخر.. يكون لقاؤنا!

أطل بعد أن نضج الضياع، وأصبح البحث عن هوية ضائعة أمرًا تافهًا لا يقوى على أمل، يخفي الغبار العالق بعباءتها بعض ملامحها، لكنني ما زلت أميزها؛ لأن جهاتها لا تخلف موعدها، أحاول عابثًا البحث عن وجوه كثيرة آن لتجاعيدها النضوج، بعد أن أخفى الوقوف المتكرر على منافذها ملامح عنفوانها؛ لأن قرية الأسمنت أطالت السبات تحت ظل أشجار غير مثمرة!!!

"الجهراء".. صوت لا يسمعه إلا من تجاوز في حديثه معها حدود الحواس الخمس إلى الغواية المحضة فحسب.

هي.. لا تزال هناك خلف هذه الجهة المفتوحة في الأفق، تسألني عن أخي "صفوق"؛ فلا أعرف لوجوده جهة كي أشير إليها.. قبل أن تنهمر الدموع، أعرف أنه ذهب يبحث عن حلمه الذي كبر

حتى التهمه، ولم يترك لنا منه شيئًا نحدثه!! كلهم هناك إلا أنا الذي أستقبل هذا الفضاء الرحب!! أبقي لعامي القادم شيئًا من تلك البذور؛ لعله يفي بغرض الانتظار، أفعل ذلك سرًا فتستجيب – هي – حين ترسل للمدى صوتها على أجنحة تعرفها رياح "السموم" الملتهبة، كانت هي محطة مخيفة في طريق هجرة أسرابنا؛ لأن الكثير منا أدمن أبوابها المغلقة، ولم يعد باستطاعته تجاوزها دون جروح. أطل عليها من شباك الطائرة، وأبتسم لأنني لا أزال أشعر بها تصغي إلي، لكن ابتسامتها لم تعد ابتسامة فرح – كما كانت من قبل.

آنذاك أغلقت شباك الطائرة؛ لأنني فهمت ما معنى أن يمتلئ الصدر بغبار الذكريات!!

* * *

GMT 16:05

إلى تلك الزوايا المظلمة يجتمع العالم في نهاية المطاف بعد رحلة ألم طويلة، تكون مكتظة بالوهم والخزعبلات وكلام الفقراء والمفلسين، ينتشر هذا السواد الذي يمسك بأطراف ردائه رجال الأمن بالوقت ذاته، الذي يرفع رجال الضمير في وطني ثوبه، ليروا الشيطان الذي يسكن بين فخذيه!! تركت الشوارع تحتقن بوجودهم الثقيل، ولحاهم التي تثير غبار الخوف والقلق والتجهم والحزن هناك، وسط قرى وطني اللامعة، ينفذون إرادة الله وينجزون ما

لم يستطع هو أن ينجزه في تلك القرى التي أوجدتها الصدفة على خرائط الصحراء سفاحًا، بعد أن فقد الإنسان هناك ظله!!

هنا كل شيء يختلف، فليس لساكنْ هذه المدن إلا أن يبتسم بعد أن يخرج رأسه لرياح الشتاء القارس، ويراقبها كذئب جائع.

* * *

(5 \ .. \ .... م)

كنت في طريقي إلى البيت بعد يوم طويل يشبه كل يوم آخر، محاطًا بضياعاتي الكثيرة خلال يومي الجامعي الذي فقد عقله في صراع انتخابي محموم، لم أنتظر النتائج لمعرفة الفائز؛ لأنني لم أشارك بهذه الانتخابات كغيرها من الانتخابات التي مضت؛ رغبة في ألا أقوم بما لم و لن يتسنى لي أن أقوم به في وطني، قطعت بطاقة التصويت، لكنني لم أضعها في الصندوق خوفًا من التجربة، كأن جميع أئمة التراث في بلادي يشاهدون ما أقوم به بغضب، خشيت أن أعترف لنفسي بالرغبة في التجربة فآثرت الصمت؛ لأنني لا أجرؤ!!

تركني ذلك الجو الانتخابي مشتتًا أبحث عن شيء ما.. ولكنني لم أجده؛ لأنني لا أعرفه، فتذكرت أننا نعلن عن بحثنا عن المختلف غير أننا نرتكب التشابه دون وعي؛ لنكتشف بعد زمن أن ذلك هو الاختلاف عينه... وتذكرته!

– لا تزال المدن ترفضنا.. على اعتبار أننا لسنا من أبنائها،

تعرفنا تمام المعرفة، كأن للصيف على جلدنا وشمًا يجعل منا أناسًا لا ننتمي إلى شوارعها، بهذا تُحدثنا خيالاتنا فنؤثر الصمت إلى ما لا نهاية.

قال ذلك على عجالة، محدثًا ما يشبه الزلزال في جميع الصور التي تعود إلى الفترة الزمنية التي قضيناها معًا.. ها هنا، كان في كل ما يمت له بصلة لا يقبل السقف.. ثم أكمل:

– لن أشكو لأحد ما هموم الطريق الطويل بين بساتين "القطيف" و"الجهراء". خضاري تنتظر من يشتريها ويطول انتظارها للعابرين، عساهم بحاجة لشراء بعضها قبل أن تتعفن أو يحرقها لهيب الشمس، فالأخيرة تفرضها الحاجة للعيش بعد فشلي المتكرر في تجاوز مساحة المقعد الدراسي التي أصبحت – هي أيضًا – لا تتسع لجسدي.

أما الجلوس تحت أشعة الشمس الحارقة والانتظار المقيت؛ فهو الثمن الذي وجب عليّ دفعه، فما أعرفه هو أنني مقتنع بنهاية مصيري؛ لأن القناعة كنز لا...!! لن أقول لا يغني؛ إنما سأنطقها كما كتبها علينا القدر.. لا يفنى، فلم الشكوى إذن؟ ما دمت لست مهندسًا أو طبيبًا أو غيرها من مسميات تفرض عليّ وجودًا آخر، وفي غير المكان الذي أعمل به، كأننا حمل سفاح.. أوجدنا تاريخ عاهر على أرض وطن لا يعرف كيف يرتدي شيئًا يقيه شر الصيف والشتاء.. لماذا يا ترى؟ هل من يبكي يوم العاشر من محرم عليه أن يدفع ثمن ذلك بالبكاء طوال العام؟!!
– أجمل ما بهذا الرصيف يا "حسن" أنه يعطي صفة الاتساع لكل شيء.

– ألم تستمع لما قلت؟

– لا.. سمعت.. ولكنني أردت تغيير الحديث.. هل غضبت مني؟

– لا.. لا عليك.. الأشياء تشبه بعضها، كأن يصبح هذا الرصيف موضوعًا مثلاً.

– بربك ألا يغذّي هذا الرصيف فكرة الاتساع؟

– بلى.. فهو خير معبّر في ذلك عن الحياة.

– ألم يصبك الملل من هذا الكلام؟ سئمت طريقتك بالحديث!

– إذن.. فلتبحث لك عن فرح.

– لم أقصد ما فهمته، لكن...

– لا أعرف!! فهذا هو العزف الصباحي الذي أبدأ به يومي كتعويذة للربح أو تقبل الخسارة بكبرياء.!! ليس لدي من شيء أرى بمرآته نفسي، أكثر من ترديد هذه المقطوعة، حين أهم باقتحام المجهول، فماذا تعرف عن أحلام باعة الخضار؟!!

– أعرف الكثير.

– أنت لا تعرف.

– لماذا؟

– لأنك لم تقف على هذا الرصيف منتظرًا قدرك يأتي بأشكاله المختلفة، فالمضحك بالأمر أن الشمس حاكم مطلق خلال الصيف يقرر كل شيء هنا.. حتى أحلامك!

هكذا هو "حسن" يبدأ يومه بحديث مر، حين يدفع التنبؤ بمسار سوق الطوارئ والعشواء – ذلك السوق الذي يسكن شوارع المجهول– بالبائع لعد الصناديق مرارًا، وإطلاق أماني البيع السريع، واختراع التعاويذ.

يجلس منذ الصباح الباكر ينتظر ويراقب الأوراق المتطايرة،

قافزة المسافات بلا خوف، يعد السيارات التي تمر مسرعة؛ فيطلق بسرعة لا تقل عن سرعتها أمنية بالتوقف منذ أن تلوح قادمة في أول الشارع، وحين لا تتوقف؛ ينتهي به الأمر بسب قائدها وصاحبها... وآخرين!!

– أدمنت الشتائم.. ففهمت ما معنى أن أكون سوقيًا!

قال ذلك مرارًا، وأعلن ختام مصيره أيضًا بأنـ "لن أعود إلى هنا ثانية"، بعد أن تكون الشمس قد أذابت شموع أحلامه التي أفقدتها رطوبة الانتظار قدرتها على التوقد، كان يجمع ما تبقى من تلك الصناديق، ويحملها متعبًا بتذكر ذلك اليوم مهما كانت نتائجه، سواء كان الحظ قد حالفه فنعم بالسلامة من رجال الأمن أو البلدية الذين يطالبونه برخصة تمنحه الحق بالبيع على تلك الأرصفة.. أم لا.

برغم كل شيء؛ بقي مع إطلالة كل غد ينفض غبار الأمس مخفيًا وجهه عن نفسه التي عاهدها بعدم المجيء:

– يزداد وجهك سمرة وجفافًا.
– يكون ذلك كلما تساقط منه العرق و نحته الخذلان.
– ياله من ملح!!

دارت هذه الكلمات.. فكانت الأخيرة ما بيني وبينه قبل أن يختفي، حديث الفراغ تدور رحاه لتطحن قمح الوقت دون أن ينتهي الأمر بخبز يؤكل كالعادة، لم اسأل عنه أو عن غيابه، كأنني كنت أريد باباً لمعرفتي به لا يغلق على نهاية ما!!

مر وقت ليس بقليل على ذلك دون أن أفكر بزيارة مكانه، إلا أنني شعرت فجأة بحاجة للمرور بذلك الشارع بحثًا عن شيء لا أعرف ملامحه، سألت من يشاركونه كل شيء على ذلك الرصيف؛ فقالوا:

– لا نعرف عنه شيئًا!! فنحن لم نره منذ أسبوع.

تركت المكان لغير رجعة!! وأنا على يقين بأن الزمن بضاعة لا يمكن لنا أن نسرقها.

* * *

GMT 16:06

عبر هذه الشوارع الفارهة التي تستقبل العيد بوميض شموعها الملونة بشكل ذكي، أمد بصري إلى آخر نقطة قد يصل إليها، قبيل أن تصده المباني الضاربة في أعماق الزمن، كأنني أبحث عن حدث يأخذني مما أنا به من حالة الاستلاب التي تمارسها علي الذاكرة المصابة بحمى الأيام الأولى، أراقب آخر لحظات العناق الحميم بين نور الشمس وسائر محتويات هذا العاصمة النشطة بحركتها السريعة دون ملل، كمراهقة نزقة، تضع الشمس قبلها التي لا تنتمي إلا للعشق المحض على هذا المكان بدفء لم يعتد عليه، فيمسي وجه الحياة أكثر بريقًا كلما باغتت رياح الشتاء

الغيوم بنفس يفرق من تراكمها ويتركها تتناثر هنا وهناك.

* * *

(4 \ .. \ .... م)

– أتدري أنني أشعر بأنه ليس هناك من مكان أكثر تعرقًا وعفنًا من أيدي وعقول هؤلاء!!

أشار إلى مجموعة من الرجال الذين يشبهون في هيئتهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكمل...

لأن عملهم هو الامتداد إلى جميع الأماكن التي لا تصل إليها الشمس، استنادًا إلى قانون العادة؛ يقتحمون الحياة كما يقتحم العفن حبات البطيخ أو الطماطم التي تراها، لذلك؛ فمن الأفضل إزالة المرض سريعًا وإلا ستخسر كل شيء!!

– لا أفهم كيف يمكن لله أن يكون بحجم هؤلاء الجهلة المتواطئين نفسيًا وروحيًا مع الجهل، أدمنوا اختطاف شروق شمسنا ومغيبها واستمرؤوا الحديث عن السلطة التي منحها الله لهم، فشنوا حربًا على الجَمال بمسدس مائي، يدّعون أن الله هو من يملؤه حين يفرغ، يقلبون جميع المحتويات التي نحملها معنا حتى أفكارنا ونوايانا؛ لدرجة تسمح لخيالاتهم النزقة بالامتداد إلى أكثر من ملامسة الدفء، الذي قد يملأ جميع الملابس حتى الداخلية منها؛ بحثًا عن الممنوع، هنا – فقط – علي أن أعترف بأنني أحمد الله على أنني رجل!! وهكذا دأب كل شيء في هذه البلاد، فما إن تقف على أحد المنافذ الحدودية حتى ترى الفحولة

المغتصبة في كل العيون المحيطة بك، بعد أن يثير التفتيش – ذلك العمل الرخيص – في نفوس المسافرين جموحًا من الحياء المكبوت بلجام الخضوع والخوف، لذلك؛ فإن القاسم المشترك بين وجوه المسافرين هو القلق والبؤس، فمن يستطيع المرور عبر الحواجز الحديدية أو الوقوف في طابور طويل دون ألا يقدح برأسه زناد احتمالات اعتقاله بتهمة حمل قلبٍ رافضٍ.. يداهمني هذا الشعور كل مرة وقفت فيها على بوابة الحدود، تشاركني هذه الخضار هم الوقوف والوصول بأقل قدر من الخسائر.

بالنسبة لي لم يكن الأمر كذلك لأنني لم أكن قد اكتشفته بعد، فلم يمنحني والدي ما يمكنني من تجاوز الحدود بسفر أفقي؛ إنما كان كل ذلك حديثًا يخلو من الملح.. دار بيني وبين صديقي "الحساوي" حسن الذي اعتاد على المجيء إلى الكويت قادمًا من القطيف لبيع التمور وغيرها من الخضار.

كان يقطن خارج دائرة أحلامي القاحلة عندما عقدنا أنا وإياه في أول يوم التقينا فيه عقد صداقة؛ تحمل فوارق جينية على مستوى الكتلة والوزن والكثافة؛ جعلت من ابتسامته شيئًا مختلفًا عن تفاصيل ابتسامتي، فقد اكتشف الحدود وفهم كيفية تجاوزها كما يجب، أتذكر أن حديثنا ذاك قد انتهى بأن أطلقنا ضحكة مراهقة لا تعبر عن ذاتها، ككل أشياء المراهق، غير أن ضحكتي التي امتدت بشكل عمودي كان الألم يحدها بأسلاكه التي ليس لافتضاضها من سبيل، فتشكل وجه وطني في الفراغ جائعًا.

GMT 16:07

سأبدأ من جديد، أبحث عن يوم طويل يشبه أول أيام العام الدراسي، ذلك اليوم الذي أتمنى أن أزيله عن رزنامتي، في ذلك اليوم يتبادل الطلاب طقوس إثبات الوجود بشكله البدائي، باعتباره المحدد الرئيسي للأدوار التي على كل منا أن يتمها.. لغاية الرمق الأخير، منذ ذلك الوقت؛ وأنا في بحث مستمر لما لا أعرف له نهاية محددة؛ لأنني لا أعرف له تاريخ بداية، أفتح باب الحلم على اعتباره وثيقة خارقة وغير مؤرخة؛ لتكون المغامرة بحجم الطفولة والجوع، وتكون – أيضًا – أكثر تميزًا من بين جميع المغامرات التي نولد مولعين بها؛ لأنها مغامرة عقل لا يتنازل عنها منذ اليوم الأول الذي يتشكل به الوعي في بلادي ويكون جسدًا.

كان وعيًا مشوهًا بشوائب الشارع، ويشبه إلى حد قريب وعي غيري من الحالمين، الذين يقطعون مسافات طوال من سوء طالعهم، حتى يصلوا إلى الذروة من خيبات ظنونهم وانكساراتهم المتكررة، فينتهي بهم الأمر إلى تماثيل تنتظر من يمت بأمرها؛ لتتقبل الأمر بفخر حتى إن أدي بهم ذلك إلى الانصهار.

* * *

(3 \ .. \ .... م)

يومي الأول لي في الجامعة! فوضى لا تحتمل، وشعور باغتراب

ثقيل الوقع على قلب مراهق اعتاد الجلوس على مقاعد من خشب، مشاركًا مجموعة من ذكور سبقت فحولتهم رغبتهم بالتعلم، يبدؤون استعراض ما يملكونه من رموز تشير إلى تلك الفحولة الطاغية شكلًا ومضمونًا، منذ الصباح الباكر ولغاية بلوغ شمس يومهم الحارقة منتصف السماء؛ حيث تنتشر أصواتهم في الشوارع المؤدية إلى منازلهم محدثة صدى لا يليق بحياة الأسمنت، كان مبدأ الفحولة في تلك المدارس المنفصلة ما يحدد الأدوار طوال السنة الدراسية الجافة حين يبدؤون بالقفز على بعضهم، ثم يستمر بعد ذلك بشكل آخر، أي بعد أن يحدد أعضاء ذلك الفراغ من المراهقين الشخص الذي سيلعب دور المنفس لرغباتهم الذكورية، فالشعور بوجود المرأة يجعل كل شيء مختلفًا.. الأحداث، المكان، الزمان، النهايات والعلاقات التي يصنعها المراهقون، حتى الدماء يصبح لها لون فريد بعد أن تنتثر.

يلح وقع الشتائم على ذاكرتي بالمرور من بعيد، كأن لكثرتها المتراكمة صدى لا ينتهي، ما زلت أشعر بأنني أحمل من السموم التي كنا نتجرعها في المدرسة الشيء الذي ليس لجسدي التخلص منه.

أحاول أن أقطع أروقة مكتظة بالضجيج ويداهمني شعور بالاصطدام بجميع الأشياء الجديدة ها هنا، تنهمر عيناي على الوجوه وتخرج بعدم تمييزها عن بعضها، لذلك؛ رغبت كغيري من المستجدين في العزلة والهروب بشكل لا يُحس، كوسيلة مشروعة لتفادي المواجهة مع التجربة الجديدة التي لم ينقل بعض أحداثها لي مقامر سبقني ها هنا، كانت الفوضى التي تحيط بنا من جيمع الجهات تجعل من وجودنا وجودًا مرتبكًا يميزنا.

أشم رائحة الحلم الذي سكن مخيلة أخي "صفوق" لزمن طويل، حين كنا نتحدث على فراشنا الليلي كل مساء صيفي، لا ننتهي منه بالصحوة من النوم باكرًا. كان الفارق فيما بيننا كبيرًا بعض الشيء، لكنني كنت بقدرة جيدة على أن أتلمس الشعور الذي يتحدث به ذلك الفتى المفعم بالحياة والصراع مع جميع المصاعب؛ ليحمل المسؤولية عن والدي الذي شربته الحياة حتى القاع، كان يحلم بهذا اليوم لكن أيامه أكثر اختصارًا من أن تفي بشيء كهذا، فعلى هذا النحو خلقنا، نخرج مطمئنين إلى أفكارنا وقناعاتنا؛ فتخذلنا عند أول تجربة منفصلة لنا عن حياة عائلتنا الصغيرة زمانًا ومكانًا.

أطلت الوقوف بتلك الزاوية لأتمكن من مشاهدة الأشياء بشكل مستقل عن آثارها عليّ، فالوقوف على مسافة من الحدث يعطي للحدث معنىً آخر غير الذي نراه عن قرب؛ لأن المسافة هي من يحدد معرفة الأشياء بعد أن يحدد هويتها، ولكي أدرك ما يحدث من حولي، وكيف لي أن أفتضّ بكارة هذا النوع المختلف من الوجود، استعدت أصدقائي الذين شاركوني تلك المقاعد الصلبة؛ عساني أرمم شعوري بالهدوء الذي بدأت أشعر بفقده، كنا – أنا وزملائي – الجدد، الذين جاؤوا من تلك المناطق النائية، نحاول أن نتكتل بتواجدنا في مساحة محددة تجمعنا، حتى إن كنا لا نعرف بعضنا.. لنشعر بالأمان، إلا أننا لا بد من أن نحمل ما يميزنا عن غيرنا، فالمسافة التي نقطعها قادمين من جهة الشمال الغربي لكي نصل إلى هنا تترك علينا من وعثائها ما يجعلنا نبدو كمجموعة حمقى، لا ننتمي لهذا المكان البعيد بمحتواه عن مخيلتنا التي كونها الظمأ والخوف والعنصرية، لذلك؛ ما زلنا نصر على أن

المرأة خطر يهدد هويتنا التي فرض مقاييسها مجتمع ذكوري، هذه هي الحقيقة التي تقف وراء جميع حركاتنا بين تلك الأروقة المعقدة في تشابكها.

– مرحبًا.

داهمني الصوت مفاجئًا، ولأنني لم أعتد على نداء كهذا؛ انتابني خوف ما لم أفهمه، بدأت أرتجف حين قمت بالتفاتة سريعة لمعرفة صاحب الصوت، كانت الفتاة تحمل من الجمال ما يفوق قدرة مخيلتي على الافتراس، فأجبت:

– أنا؟
– أجل أنت!!
– وعليكم السـ.. سـ.. سلام!!

خرجت الحروف مرتجفة غير واضحة المعالم.
– هل تستطيع أن تعطيني وقتاً قليـــ...
– الساعة الثانية عشرة ظهراً.
أجبت على عجالة ولم أعطها فرصة كي تكمل؛ فأجابت وهي ضاحكة:
– لا.. شكرًا، لدي ساعتي.. أريد أن أتحدث إليك بموضوع!!
– لا شكرًا.. لا.أريد.. هل تعرفيني؟
– لا.. ولكن...
– أرجوك يا أخت.. أريد أن أصلي.
– وما هو دخلي بصلاتك؟
– أنت تأخريني عنها!

– ماذا تقصد؟
– أقصد أنك تشغلينني عن الصلاة!
– اذهب لجهنم إن شاء الله.. "مالت عليك"

سمعتها تقول ذلك بعد أن قطعت مسافة غير قليلة، فاجأتني كلماتي حول الذهاب للصلاة، علمًا بأنني لا أصلي، قبل أن تفاجئها – هي، لذلك؛ كان المخرج أن أهرب باحثًا عن المسجد كي أركن إلى زاوية تحتويني، كان ذلك اليوم الأول الذي أدخل به إلى مسجد الجامعة؛ حيث يهرب بعض الطلاب ليختفوا عن حرارة الصيف انتظارًا لمحاضراتهم المتناثرة زمانيًا، وفي كثير من الأحيان مكانيًا أيضًا. المسجد فندق مجاني يمنح مساحته للمشردين الهاربين من حرارة الصيف ولهيب شمسها، بعد أن نزحوا عن بيوتهم النائية.

مر زمن طويل لم أقس مسافته على رزنامة الحائط؛ لألتقي الفتاة ذاتها تهم بركوب سيارتها الـ بي إم دبليو، كانت تتحدث بهاتفها النقال، وكان الهاتف النقال آنذاك يصنف على أنه رمز الثراء الفاحش والطبقة المخملية؛ لأنه لم يكن قد أصبح شائعًا، مشيت سريعًا إلى جهتها وناديتها:

– لو سمحت!
– أعتذر.. لا وقت لدي.
– هل لكِ أن تنتظري قليلاً؟
– في هذه الحياة أشياء كثيرة لا تنتظر.. أنا من هذه الأشياء!
– ولكن أردت... فقط!
– ....!

تركتني واقفًا ومضت إلى حال سبيلها، راقبتها إلى أين تتجه لعلي أستطيع اللحاق بها، ولكنها .اتجهت إلى الباب الرئيسي وغابت في زحام الجامعة الجميل.

كان الوقت منتصف النهار، أيقنت أن الساعة تشير إلى الثانية عشرة تمامًا، لم أكن أعرف إلى أين يجب أن أتجه، إلى أن توقفت أمام باب المسجد، ازدحم كل شيء بداخلي، وأحسست بذاكرتي تتجه نحو الانفجار.

ركنت لذات الزاوية وأنا أفكر بالأشياء التي لا تنتظر!!

* * *

GMT 16:08

هكذا كنا هناك!! نبني ثقافتنا على ما تبقى من حطام أحاديث آبائنا وأصدقائهم على أنها هي الأحاديث الأكثر صدقًا من أي قانون رياضي، نقتحم الحياة ببناء فكري ينتجه صوت الجماعة على أنه الحقيقة المطلقة لكل شيء، ما إن تتغير الجغرافيا حتى يزداد ارتباك أحاديثنا، وتكشف لنا الحياة أن عري الوصايا التي نسجتها يد الجماعة عري فاضح، لا يرقى لأن يكون مشروعًا علميًا أو أخلاقيًا أو سياسيًا أو دينيًا حتى، وهكذا نظل فيما تبقى من أيامنا نبحث عن الخلاص من تراكمات ليس لنا ذنب حملها؛ لأننا لا نملك في ذلك الأمر خياراً. إذن.. فإن حياتنا بحث مزمن عن

الذات، ورحيل مهووس بالمجهول الذي لا يعرف الحدود؟!

* * *

(2 \ .. \ .... م)

– لم أقل له شيئًا.. إلا أنني كنت صادقًا معه؛ فأعطيته أفضل ما لدي من طماطم، وقلت له "كاهي"؛ فرد علي بكلمات قليلة تعبر عن سخرية ضارية جذورها بالأعماق "لن تتغيروا!!"

قال "حسن" ذلك معبرًا عن ألم ليس من السهل تلمسه؛ فقلت له:

– الحياة سلة تتسع لأشخاص يحملون في جيناتهم صفات ترفض الآخر بمعناه الأرقى والأشمل، بغض النظر عن هويته أو كينونته.

– جذورنا تؤلم يا صديقي.

– لا عليك.. كلنا متشابهون في أننا لم نكتشف ذلك إلا بعد زمن طويل من الدخول في دهاليز الانتماء لمدن الأسمنت المشوهة، أتدري.. لقد جاء والدي إلى هنا ليعمل في مصنع للصلب، فتشكلت روحه بين الحديد والنار برغم بساطته التي ظل يحملها معه من الصحراء، هو الرجل الذي اكتشف بمجيئه إلى هنا نوعًا جديدًا من الانتظار لليوم الثلاثين من كل شهر من الأشهر التي تحمل صفات لا تنتمي إلى أشهره القمرية.. فحفظ التاريخ، أما والدتي – نصفه الآخر؛ فكانت سماؤها دائمة المطر، لذلك؛ كان بياض شعرها يزداد كلما ازدادت روحها خصوبة وانتظارًا، كان ألمها صعب الاكتشاف، وعتبها أكبر من أن تخذله السنون، أو تنحت وجهه

رياح التغيرات التي هبت عاتية بشكل لا تصده الشبابيك الحديدية.
أما "صفوق" أخي الذي يكبرني بسنين من القحط؛ فكان حظه يقع على مرمى حجر من حظي، إذ ولد في الصحراء قبل أن ينزح والدي إلى هنا بحثًا عن رزق مضمون، جاء كالمختطف فنسي روحه هناك، ظل يشاكس كل شيء في هذه المدينة، لذلك؛ كان كثيرًا ما يخدش نفسه، راقبت نومه طويلًا... كان يشبه "الوشق".

– وأنت؟

– لم أتغير.. بقيت كما أنا مستسلمًا لأقداري ولا أحمل هوية.

– الزمن كفيل بك.

– ولكن.. ألم ترد على ذلك الرجل؟

– قلت له إنني لم أكمل تعليمي.. ولكنني أعرف ما يكفي لكي أقرأ وأكتب، فقال لي "لا يهم.. فأنتم تعشقون الثبات!!"

– لن تتغيروا! ما الذي قصده؟

– لا يهم أن تفهم أكثر من أن إجاباتك في كثير من الأحيان تعبر عما يسكنك من ضعف!!

كانت كلمة "ضعف" هي التي أوصدت باب الحديث معه في لقاءاتنا، التي أصبحت تتناقص في الفترة الأخيرة، فلم نعد أنا وإياه متشابهي الحروف والجهات، ومن الطبيعي أن يتلاشى الفهم، لكنني شعرت به حين هممت بالرحيل تاركًا إياه يبحث عن مشترٍ لمّا بقي من صناديق الطماطم، وسمعته يصيح بصوت غاضب لا ينم عن اهتمام بأرباح:

– "من يشتري هذه الطماطم.. أقسم إنها بلا جذور!!"

– ....

* * *

GMT 16:09

الورد حديث صاخب يملأ هذه الشوارع في هذا اليوم من السنة، كأن الحياة تهدي هذا المكان أرقى ما تملك، تحيي الورود كل شيء هنا كأنها تحتفل بهم، وتقدم لهم الزمن بحلة جديدة؛ تحمل في طياتها معنى الخلود والحب، هؤلاء المجانين لا يعرفون أن هناك – إلى جهة الشرق من هذا المكان – وطنًا يحرّم لصوصه الورد تحت مبررات عدة، كيف يمكن يا ترى شرح هذه الفكرة لهؤلاء؟! أو كيف لوطن يحرّم الورد أن يقوى على أن يبتسم؟!!!

* * *

(1\..\....م)

– "ليس لي مزاج للبيع" بهذا الإحساس، كاد يومي ينتهي بعد أن كنت قد بدأته وبـ "يلعن أبو هالحياة"، قضيته متفكرًا بالمسافات الشاسعة التي تفصل الأشياء عن بعضها، لم أجد لي منفذًا للهروب من هذه الأسئلة الفجة، وهي تطحن وعيي يوقعها وتفرض نفسها بثقل، راودتني فكرة الذهاب إلى ظل شاحنتي المركونة على بعد مسافة ليست بعيدة.. بغرض العزلة، والابتعاد عن أحاديث لا تنتهي بتغيير الواقع، كغيرها من أحاديث المفلسين في هذه الدنيا الفسيحة، يشاركني ثالوث الشمس والأرصفة والخوف هنا، مجموعة من هولاء المفلسين مثلي. دون أن يتحولوا إلى أصدقاء؛ لأن مقاييس الصداقة تحتاج من الأزمات الكثير لكي تنضج، أما هؤلاء الباعة؛ فقد شوه العطش وجودهم، فأصبحوا

يمثلون الآخر "الخطيئة" التي يجبرنا الزمن على أن نخترع علاقة وطيدة تربطنا بها؛ لنشعر بأننا نحظى بقبول مزيف، نكتشف ذلك بعد أن يمضي من الزمن ما لا يسع للتراجع.

برغم ذلك الفضاء المشاع؛ ظل هناك أمر غريب، كان يجمع شتات مزاجي المتقلب طوال اليوم، فيهرب بي من مواجهة إرادتي بترك ما جئت من أجله من بساتين "القطيف". والعودة كما كان يخطر ببالي بين فينة وأخرى؛ لأن مجرى الاهتمامات في هذا اليوم لم يكن متعلقًا ببيع أو شراء، إنما بتلك الفتاة الجميلة التي تمر بسياراتها الفاخرة مسرعة كل يوم. هاربةً من عفريت الصيف الذي تصنعه الشمس فيحكم الشوارع باللهيب، كانت تلك الفتاة قد ابتسمت لي بالأمس ابتسامة جميلة، ما زالت عيناي تتذوقان طعمها.

– ابتسامة الأنثى دعوة شفافة للسعادة المحضة.. إن كانت صادقة.

– هل تعلم أن تلك الابتسامة قد دفعتني.. من حيث لا أعلم.. للبقاء جامدًا.

– ربما لأنك من أولئك الذين يتنفسون رائحة أخرى للحياة حين يذهبون بسلوكياتهم المعتادة عن أهدافها؟

– ربما!!

كانت قد توقفت بالأمس لتشتري شيئًا من طماطمي المحترقة، فكنت الأوفر حظًا من بين جميع باعة ذلك الرصيف، وقد كسر توقفها أمامي جميع أعراف الحظ التعس في حياتي، فارتبكت ذكرياتي لدرجة الطيش!!

– هنا تمامًا يفقد القلب صوابه.

– أما اليوم؛ فقد أحكم اليأس بداخلي السيطرة، بعد أن قطعت الشمس مباشرة نصف المسافة بين شروقها وغروبها ببطء يشبه بطء الأفكار التي تمر بعقلي، التي يعيدها على نفسه من يجلس على رصيف مجهول الهوية، ينتظر طويلاً فلا يأنف رائحتها النتنة حين تهب. "ترى.. ما المسافة التي تفصلني عنها؟ ما المقاييس؟.. لا شك أن المقاييس هنا تختلف، لكن من الذي وضعها؟ أهو الله الذي أمر بأن يكون كل منا مكانه؟".

كانت هذه الأسئلة تدور برأسي طوال اليوم، ولأنها أكبر من قدرتي على إجابتها؛ ظلت رياح الحيرة والقلق دائمة الهبوب:

– لماذا؟

– لأنني لم أصنع موضوعها أو أرسم ملامحه.

– فماذا صنعت بها؟

– لم أفعل شيئًا، فقد كان قد أوشك يومي على أن ينتهي كما بدأ، مر بذاكرتي ذات الشريط، بدأته من حيث توقفت لتشتري بعض الطماطم بالأمس، حين قالت بعد أن وضعت الصندوق في داخل سيارتها، وأوقف حركتي شيء لم أفهمه "اقفل الباب بسرعة.. فالدنيا نار" أقفلتُ الباب، ومضتْ هي تاركة فراغ ذلك المكان يتسع بشراسة، ويلتهمني بأسئلته المفتوحة، ولم يبق منها سوى ما تبقى في يدي من المال الذي رفضت أن تأخذه، تركتني أتأمل ماله من جمال، وأشم عطره بين لحظة وأخرى، لذلك فقط؛ حفظته مقدسًا عن البيع والشراء طوال تلك المدة.

– ما الذي منعك عن الحركة؟

– الفرق فحسب.

– الفرق بين ماذا؟

– الفرق بين دنانيري ودنانيرها.

– و ما الفرق؟

- الفرق كبير جدًا.. أدركته جيدًا حين تأخرت اليوم قليلًا عن موعد مرورها المعتاد دون أن تأت، فقد انتظرتها طويلًا، وكنت قد عدّت خلال تلك الساعات الثقيلة ما تساقط من قطرات عرق، تشكل اليأس بقطرات العرق المتساقطة على الأسفلت، فكان بحجم الفقد.

- ألم تأت؟

- لمحتها من بعيد فحسب، تعبر مسرعة كأن حرارة الشمس وحش كاسر يحاول أن يلتهم فقاعتها الأوروبية الفارهة، ولم تتوقف!!

- لماذا؟

- لماذا لم تتوقف؟!!

- أجل لماذا؟

- هل فقدت عقلك.. هي لم تلتفت أصلًا.. فكيف تتوقف؟!

- ولماذا لم تلتفت؟

- لأن المسافة ما بيني وبينها أكبر من أن تجعلها تراني، وهذا ما أشعرني بالجرح. لذلك كانت خيبة الأمل بحجم الانتظار، وبحجم الفوارق التي لا تسمح لنا الحياة بتبادلها.

- هل استسلمت؟

- لا.. رفضت الاستسلام بأن أخرجت الدينار من جيبي لأشم رائحته، لكنني حين أخرجته كان مبتلًا بالعرق، ذا رائحة عفنة!!

- لعل الله من أراد ذلك.

GMT 16:10

داهمني نفس من أنفاس الشتاء القارس عابثًا بأوراق سقطت عن الشجرة التي أجلس أسفلها، ككل الأشياء التي تسقط حين لا

تقوى على احتمال الجفاف، كم تشبه هذه الورقة أحلامي وقد سقطت بعد أن طال انتظارها، أعاد ذلك وعيي إليّ، فأصبح هذا المكان الرحب لا يتسع لذاكرتي التي ليس لدي أكثر منها تعويذة، أقتحم بها الزمن القادم.

الأعوام الجديدة تطرق أبوابها يد المجهول قبل أن نرتمي نحن بأحضانها مبتسمين، وتاركين وراءنا ما لا يعود.

اجتمعت بمخيلتي حزمة أشياء لا يربط فيما بينها شيء ما. وجدتها تعيد تشكيل وجودي كلما التقطت عيناي منها المزيد، وعلى عجالة – كما هي عادتي التي تصفني بها أمي كلما ضاقت ذرعًا بحركتي وعدم السيطرة على نشاطي الجسدي – قمت من مكاني متجهًا نحو نقطة انتظار الباص في آخر الطريق المحاذي للنهر، أسقطت دون قصد مني فنجان القهوة الورقي نتيجة لتلك القفزة السريعة والمفاجئة.

ظلت ذاكرتي تحتفظ بهذا المشهد من غير مبررات كافية، وحين عبرت جسر الذاكرة التي اختلطت بالكثير من المشاهد من حولي.. لأصل للجهة الأخرى من القلب، اكتشفت المسافة الحقيقية لحزني!

ثمة صوت خفي بداخلي، كان وحده يقودني إلى النهاية المطمئنة التي تشعرني بالحرية والحياة، فأنا كغيري أضعت الكثير أو أضاعني الكثير؛ لنجتمع في نهاية المطاف على هوية مشوهة وقلقة.

– إن أردت أن تكون أنت.. هو أنت.. بلا غبش، اذهب إلى حيث

يريد قلبك، فقطار الحياة يلتقطنا من حيث لا نعلم لمجهول مدلهم يسمونه العمر، نحزم أمتعة القلب بلا ترتيب، وكم تسقط من بين ارتباكاتنا وجوه أردنا لقسماتها البقاء، نحاول أن نمسمرها بآمالنا فندمي القلب، برغم كل ذلك؛ يكون قدرها السقوط...! بني.. كلنا في وحدتنا متشابهون يفزعنا العمر، ويخلف وعده معنا الانتظار رغم الأمل، لا تيأس من أن تجد ما تبحث عنه حتى إن كنت لا تعرفه؛ لأنك إن اقتربت منه حتمًا.. ستعرفه.

– إنني أبحث عن الحقيقة.

– ما تبحث عنه لا يحيط به الزمن.

– هل سأجد الشيء الذي لا يحيط به الزمن؟

– ربما.. ولكنك لا تبحث في ذلك عن الحياة.

– كيف؟

– بني.. الزمن نهاية، والحقيقة كمال، والنهاية والكمال لا يلتقيان وجمال الحياة، إنها بلا كل، الكل كيان سماوي ليس له نهاية.

– هل سأموت؟

– جمال الحياة بنهايتها!!

– ماذا تقصدين؟

– هذه هي محطتي.. يجب أن أنزل هنا.. وداعًا.

كان هذا حديثًا مرتبكًا نقشته بذاكرتي امرأة ثمانينية جلست بجانبها في القطار، تذكرته سريعًا، وعجبت لاحتفاظ ذاكرتي به كما هو، رغم الصعوبة في لغتها المغاربية، تجاوزته بإعادتي كلمات ثلاث تحمل أكثر مما تحمله الجهات الأربع "تهرب حياتة سريعًا"، كانت تلك كلمات العرافة التي كشفت لأمي أوراق حياتي القادمة عندما كنت صغيرًا، وظلت تحمل لي دموع أمي وتلاحقني

بها أينما ذهبت، لفت انتباهي مشهد لكلبة ضائعة يثير خوفها الشفقة، كانت تبحث عن وجه صاحبها وسط جمهور غفير لا يشاطرها الشعور بالضياع، وقد بدا على قسماتها حزن غريب، راقبتها لوهلة إلى أن هربت في زقاق ضيق واختفت، بالوقت نفسه الذي صدح فيه صوت مغنية تنشد. We are the same اتجهت بوجهي للسماء البعيدة... ضاحكًا:

– لعلها صدقت!!

بلغت الجسر بعد قليل، فكان النهر يجري بسرعة لا تلاحظ، شعرت بالزمن آنذاك قد تجاوزني كما تجاوز أوراقي التي كنت أكتبها ولا تزال بيدي. أيقظني من نشوتي بالماضي أنّ أشرعتي بلا ميناء.

التفتُّ إلى النهر وصرخت بقوة:

– أبحث عن حياة!!

تفرقت الطيور التي كانت تختبئ بخلايا الجسر اتقاء البرد جراء تطاير الأوراق التي كنت أحملها معي، بعد أن ألقيت بها من أعلى الجسر.

انتهى،،

في (مكان ما)... للعابر أن يلتقط
ذاكرته... الساقطة!!

1

عدت مرة أخرى لألتحف كثافة وجودها، وأغمر وجهي بنسيج صمتها الجاف، كأنني أهرب من حدة نظراتها.

إنها مدينتي ذات الصفيح السكاني الساخن، للحد الذي يجعل آمال قاطنيها تزداد تبخرًا كلما اقتربت شمس حقيقتها من نقطة المنتصف في مرآة الله الصافية، تحاول عيناي لملمة تناثرها بملامسة أطرافها المتاحة للفوضى، والتصحّر، والشتات.

حين تحدثك سماؤها بزرقة صافية؛ يساورك الظن باقتراب حدوث ما يكسر في العيون جفافها، وفي القلب جموده وتسلطه، للتو فقط بدأنا نجالس بعضنا متجاوزين- أنا وإياها- مسافة التجاهل والجفاء فيما بيننا، مشعلَين حالًا من البرود اللغوي؛ كان قد طال أفواه من كانوا على سفر وآمالهم عدة من أيام أُخر كحالنا.

كان أن التقيتها من قبل في طابور الحياة الطويل، حين فاجأني صوتهآ المكتنز، وتساقطت من يدي أماني العبور، فكان اقترابي من جسدها أكثر من خط التماس، لأشعر بالدفء كيف يقدم نفسه لظلٍ يتلاشى عند بوابات الرحيل.. كلما أطل الزمن بأيامه المتأخرة، التي لا تشبه في اتّقاد شمسها أيامه البكر؛ أعود بسلة تلك الأيام لنفسي، واقفًا على نافذة هذا اليوم الثقيل الذي أقطع أرصفته ناثرًا وجهي في العابرين، ومتيممًا ذاتي الملتحفة في الصمت البعيد، والمسكونة بجمهرة من الأحلام والذكريات والآمال والانكسارات،

قاطعًا طريق ضجيجها بخطى السكون الحذر.

- إنها الـ....

10... صباحًا و...

"عقارب الساعة تعطي زمناً آخر غير هذا الزمن الرديء" *

و...

2

امتداد عمودي للحركة في جسد هذا المكان، الذي ترفض أشياؤه المغادرة، أنفث نَفسًا من دخان يحمل من لون يأسي الكثير، ويأخذني التيه والملل حتى آخر شارع «التحلية» بأمل القدرة على التعبير عن كوامن نفس «يعقوب» التي طال المقام بها؛ فتحولت داء قاتلًا للروح الإنسانية الصرفة، كل «يعقوب» هنا يسكن صدره جيش طويل من المقدسات والملائكة؛ التي تراقب الحركات والسكنات، ولابد من أن تضع ختمها على جميع الأفكار؛ لكي ينفذ بها العقل فتصبح مشروعة.

- لذلك.. لا أجدك مبصرًا أيها الـ «يعقوب»!!!!

---

* كلمات للشاعر العراقي: مظفر النواب.

يأخذني كغيري من أعضاء هذا القطيع المتشابه حتى الثمالة- واقعًا وحلمًا- خوفٌ مباغتٌ؛ فيصلي الجسد صلاة استبقاء؛ تبقى الجدران المتهالكة على حالها.

- وهل من موعد للاختلاف؟

يترنح هذا الصوت داخلي دون أن يحدث صدى في المكان؛ فيقودني قلقي إلى العبث بوعيي الصرف وذاكرتي المتقدة، أخترعُ لأحزاني المتشيطنة أرجوحة وهم تحمل من تلك الأحزان ما تشاء، وأظل منتظرًا قدري الذي يأتي ناضجًا كلما اتجهت ذاكرة الرجل ها هنا للمغيب.. واستقبل صدره الأسرار واتسع... كالمقبرة!

هذه المدينة تسرق أبناءها بالاتساع؛ فتضيق كعين البخيل، حتى إن امتد هذا الطريق إلى نهاية قدره الحكومي، وامتلأت مسافته بسيارات الأجرة التي تعبّر في حركتها عن السمة الطبيعية للإرادة الهرمة، التي تضع قانون المرور بعقلية الجلد والتعزير، مستخدمة أشياءها التي أصبحت بلا ظل...!

الجنة هنا لها أبواب محكمة الغلق بأمر أجهزة كشف النوايا التي نحتتها رياح الحضارة؛ فأبدت من سوأة وجودها ما كان لا يُرى من قبل، إلا أنها لا تزال تعمل معتمدة على زكوات وصدقات؛ تنشر من الدم على جدران هذا البلد، أكثر مما تضعه عليها من أصباغ فرح.

إذن ها هنا تلد الأَمة ربتها والأنظمة فوضاها، وكذلك تضع القيم حملها سفاحًا على سرير من هروب حتمي في زمن الوهم الطويل!! بعد أن بلغ العبث بالأجساد مبلغًا صعبًا، وازداد كلما

أغلق جهاز الأمن بصره، بعد أن يكون جهاز الحقيقة قد أغلق شباك بصيرته... زمنًا طويلًا.

– عناكب اليأس قد نسجت خيوطها على شبابيك الأمل في هذا الوطن.. ياه... يالطول الانتظار أيتها الأتربة!

يعبر هذا الصوت خافتًا هذه المساحة الزمنية البكر، دون أن يقذف بركة سكونها حضور ما.. بحجر؛ ليصبح الانتظار هنا غير مجدٍ، ما إن يُعرف بأن رواد هذه المكاتب المرتبكة من صحافيين قد اعتادوا على قص شريط يومهم من المنتصف، هدوء صرف يشدني من الأعماق بقوة ساحرة لأزيل عن ذاكرتي بعض ما علق بها من سقوط؛ فأعود لأعبر جسرها ربما أصل للخلاص!! بعد أن عدت إلى «هنا» و لم أقل لـ»وطني»؛ مكتفيًا بالإشارة إليه فحسب خوفًا منه، فالوطن.. كلمة ثقيلة نتلقاها في الصغر؛ لكي نتعلم كيف تتحول إنسانيتنا إلى شيء من العنصرية الفجة، وبندقية تقتل كل من يحاول أن يختصر المسافة للوصول إلينا، الوطن بابنا الذي نغلقه بوجه الحياة!!

ويكون...

3

- المطار Please.
- Ok sir

لم يدُر بيني وبين سائق التاكسي.. خلال المسافة التي امتدت بين الفندق والمطار.. أي حديث مكتمل النضوج، برغم حاجتي لشيء يزيل عني وعثاء الطريق.. كما يجب، حاولت أن أتأمل كل شيء من حولي، غير أن الإرهاق.. الذي ما زال يتلبسني منذ ليلة البَارحة.. يثقل عليّ بشكل يشلّ من قدرتي على التدقيق بتفاصيل مدينة الزجاج هذه، كان التعب من أكثر الحاضرين تفاعلًا معي، ومسببًا رئيسيًا لاضطرابات جسدي، غير أن الذاكرة كانت الأكثر فاعلية بأخذي من كل ما هو حولي، فتفاصيل الأمس جديرة بشغل مخيلة رجل ولد في أكبر حظيرة رجال في العالم- كبلدي، دون أن يجد العالم لمساحته الشاسعة من علاج ناجع، أنا هنا فقط... والذاكرة العائدة من حالة الامتداد إلى التمركز تزداد ضيقًا؛ ليزداد معها وقع مفرداتها الدقيقة.

يأتي صوت النبوءة الخفي بموسيقاه الحزينة محاولاً الاعلان عن فتنة الجسد الغض ولأكتشف به تضاريسي الوعرة، وأجزاء أخرى أشعر بها تكمن في صحرائه منذ زمن، لكنها ليست جزءًا أصيلًا منه؛ إنما هي بقايا فحسب، أورثني قداستها والدي بعد أن رحل وأوصاني بها خيرًا، مضى من العمر الكثير، وما تزال كل تلك المقدسات تداهمني بشتائها، الذي طالما خشيه والدي فأورثني إياه أيضًا.. قلقًا بلا دفء!

فتحت النافذة.. لعلّي أقذف حزمة من الأسئلة المزمنة إلى خارج سيارة الأجرة.. فهاجمني الصيف الحارق في تلك العاصمة التي تتجمل كل يوم بالمباني والزجاج؛ لتصبح أكثر ثورة على الفقر والهرم والتشرذم، يتلامس فيها الوفرة والجوع- في ذات الوقت- كامرأة عجوز جمالها ليس له من جهات، وقد أخذت السنون منها ما لم تمنحها إياها حقن السليكون الرخيص.. في زمن الأجساد الثائرة على ما يسكنها من روح.. ولن!

التناقضات التي تجتمع في كل شيء، قادته اقداره الى مدينة الأسمنت؛ لاتمنحها حياة تجري في أوردتها دماء، لذلك؛ فإن لأمر حدوثها منطقًا مخيفًا، يثير بلّورها في عابر حال سبيله- مثلي- سؤالًا ليست له إجابة قريبة؛ مفاده حين أطرحه عليها: ترى إلى أين يتجه بك الجوع؟!!

هذه المدينة بلا روح.. أشعر بها تنطق بلا صوت أيضًا؛ فيتلبسني ارتباك ليس له من حدود، تقاس مسافاتها بغير الأسلوب الرياضي، فلا أعرف كيف أقترب منها.. رغم أنني ما زلت على أرضها.. ولم تحلّق بعد بي الطائرة إلى وطني، الذي يقطن في الـ «هناك».

ينتظرني بمساحته الشاسعة، التي يقف بها الإنسان تحت مطر غزير من اللا منطقية، وعليه واجب رفع مظلة من ثلاث أو أكثر، فإما أن يصبح لوطيًا.. أو مدمن مخدرات.. أو نبيًا أتى متأخرًا بعد أن انتهى موسمه ولم يجد لبضاعته من رواج.

أجل.. إنه جسد من قلق وجفاف، ينتظر الموت بصمت.. تاركًا أشياءه تخرج عن سكة الزمن الحديدية.

4

أنا بها.. ولست- كذلك- أقيس طول شوارعها بخطى ألمي وسأم التكرار، فتختلط داخلي أناشيد الأشرعة والرحيل، كنورس غادره حلمه بالبحر دون أمل بالرجوع...

- إن التعب هنا بلا نوافذ!
- والغموض هناك... مقدمة القلق!
- هذه الأوطان اللزجة بحاجة إلى ماء.

وأعود أكثر...

5

كنت قد فتحت النافذة؛ فتطايرت ستائر الليل عبر الأفق البعيد؛ فحكم صوتها كل شيء هناك:

- أو تشعر بالبرد؟!
- أنا ؟! أبدًا!

كانت حقيقة الطقس في الخارج ما يجعل سؤالها مُحمّلًا بحجم من السخرية، ليس لرجل مثلي أن يتفادى ثقله دون انكسار أو خضوع، تقبلت ذلك بلياقة وروح رياضية؛ خوف فسادٍ قد يطال

ليلتي الأخيرة هنـا، لكنها المرأة.. لا تعترف بالوقوف.. لذلك؛ لم تكتف بما قلتُ وأرادت المزيد، المرأة - أيضًا- تمتلك المبادرة لتبدأ دائمًا، فهي التي تقرر النهاية وليس الرجل.

- ما سر وقوفك هنـاك.. «مبسوط بهذه الرطوبة؟ «.
- أنا هنا لأبحث عن شتاء هارب.
- ظننتك تبحث عن الدفء!

سبقت تعليقها ابتسامة بسيطة، لمعت من خلالها إحدى أسنانها المرصعة بما يشبه حبة الألماس، أعجبتني الفكرة، وكيف أن هناك من لم ينشغل بأمور الحياة وأولى اهتمامًا كافيًا بشيء كهذا.

لم أجبها أكثر عن تفاصيل الشيء الذي أبحث عنه، والتزمت الصمت الذي أثار ضحكها.. بشكل يليق بمقام ليلها المكتنز.. شاعرة بنصر سهل بعد طعنة سؤالها الأخير، إلى الآن وهذه المرأة لا تزال كغيرها من النساء؛ لا تعرف في أي « هنـاك « من كيانها يكمن الدفء؟!

فقد منحنا المنع هناك شيئا من التأمل في عالم هذا المخلوق الغريب، الذي يقف في أول قائمة الأشياء، التي نكتشف حجم علاقتنا بها بعد أن نفارقها، ويصبح آخر شيء نحمله في مخيلتنا عندما نغادر، وأول شيء نبحث عنه بعد أن نصل لنقطة النهاية، التي كنا قررناها قبل ان نغادر الى هناك كرمز للجمال المطلق.. المسألة معقدة جدًا وليس لشرحها من سبيل.

وإلى هنـا ...

6

فورة «تموز» تنعكس على وجهي الذي يكاد يلامس خدّ النافذة، وضجيج أجهزة التكييف الذي يهز جدران مقبرة الأوراق، التي تنطوي على مشاريع مؤجلة وأخرى لن تكتمل. فكل الأشياء هاهنا متشابهه لأن هذه المدينة لا تأبه بغير أهداف حراس الظلام بعد أن اوهموا وجودنا بامتلاكهم لارادة الله ومطرقة عدالته. وقد أمرنا بالتنازل عن إرادتنا – كوصي علينا– لهم؛ فكانت الجريمة أكبر من غلاف البراءة المطرز بالألوان البراقة، كان التنازل مشروعًا بريئًا، لكنه بلا عقل راجح؛ لأنه تحوّل مع الأيام إلى تخلٍ؛ فولد التخاذل يتيمًا بنا، وامتلأت جماجمنا بقيح متعفن، بعد أنَ دأبوا على حقنها منذ الصغر بذلك، فتحول وجه الله الجميل إلى رجل يسكن بين تفاصيل لحيته شيطان مَريد!!

– فهل تحتاج الضحية لدفاع ما إن كانت تؤمن بأن الجاني على حق؟

أشعر هنا بذات الدفء ينبعث، وقد اختلف الموقف وتحوّل من جسدها إلى «أسمنت» لا يرمم جدران الذاكرة، حين دخلتها الأيام المكتظة كقدر؛ فافتضّ العمر حقيقتها وتجاوزها باحثًا عن شبقه، وتحولت هي إلى وهم منصهر.

وما زلت أذكر جيدًا...

7

– لماذا هناك؟

اقتربت.. بعد أن طال حديث النافذة، لم أفهم ما الذي تسأل عن سبب حدوثه على النافذة؛ فصمتُّ قليلًا متجاهلًا بحثي الدؤوب عن المضامين الخفية وراء الكلمات خوفًا من أن أصيب طبيعة اليوم بمقتل؛ لأن الحذر في كثير من الأحيان يُفقد الطبيعة ألوانها، تجاوزت كل ذلك برغم أنه الوضع الطبيعي لوافد يفد مكانًا ما لم يألفه من قبل، فالحذر– في موقف كهذا– يصبح الظلّ الذي يتبع حلول أجسادنا في كل مكان بغير شمس حاضرة، فهناك وجود آخر بلا شك.

أجبتها حتى لا أكون مملًا – وبشيء من الخبث– علّها تكون المناورة التي تفي بالغرض:

– على النافذة... لأنني أجدها الإطار الأجمل للحياة بأسرها، تصبح فسيحة كلما ضاقت معتقلات الأضلاع بثورة القلب، وامتزجت الاتجاهات وأخذت ذات الملامح، فكان التيه سمة وجوهنا.

– أهكذا أنت؟

– هكذا نحن بلا منافذ.. تائهون.. أليس كذلك؟

– لنتجه لبعضنا أفضل.

– هل تشعرين بجوع؟!

كان سؤالي يحمل أبعاد مخيلتي المتقدة، والحدس يقول: ناور المرأة برغبتها توقعها بالأسر.

فكان ردها:

– أي نوع من الجوع؟

– الجوع الذي نقيس مسافته بالأطباق.

– لا.. ولكن ليتك تختصر مسافة جوعي الحقيقي، بعد أن عبر ليلنا المنتصف منذ وقت ليس بقليل.

– هل تعلمين أنه كلما ازداد جوعنا رأينا الأطباق الممتلئة لا تكفي؟

– ما الذي تقصده؟!!

– لا عليكِ!!

8

الوقت عباءة طويلة الأكمام، تتطاير كلما أخذت منا الطرق المهجورة خرائط الحياة، فنصبح مهندمين بها أكثر، والحياة هي الكنز الذي تخفيه أجسادنا، ونكتشفه كلما اتجهنا نحو النهاية المطلقة، التي تجمعنا تفاصيلها مع الله مرة أخرى. كم تأخرنا في الوصول إليه؟

كانت الليلة الأخيرة هناك في تلك المدينة السريعة، وليس لمثلي أن يقطع مسافة ليلته الأخيرة فيها إلا بامرأة؛ تمنح

تضاريسها وغنجها وشبابها لعابر طريقه يائس مثلي، يؤمن بأن المرأة وحدها تختصر زمن الرجل، فقد كان الاتفاق سريعًا كمدينته وبغير تفاصيل كثيرة، توجهنا بعده إلى ذات الهدف الذي سوف يجمع أشلاءنا بلا نظام.

– أنا أسكن هنا.
– جيد هذا الفندق.. مناسب، لكنك تسكن وحدك.. أليس كذلك؟
– طائرتي غدًا ظهرًا تغادر، ولا بد أن أكون وحدي، حتى إن كان يرافقني أحدهم، ثم ما الذي يزعجك من أن أكون برفقة أحدٍ ما؟!!
– فقط لأتأكد قبل كل شيء إن كانت ليلتي برجلين.
– وهل تقبلين بذلك؟
– إنه عملي.. هيا لندخل ولا تكثر من الأسئلة.

لي أن ألتقط ذاكرة عبوري بعد أن سقطت، ولكِ أن تفعلي ما تشائين دون أن أجمع نواياك فأزِنها فتُنتهك العدالة، أذكر من ذلك أمثلة كثيرة كان آخرها هنا، وما قبل هنا كان دخولنا إلى هناك، تمامًا قبل عتبة هذه الذاكرة الماثلة أمام عيني كالصنم، حين سألني فتى – ابتدأ للتو مراهقته– المساعدة؛ فأجبته دون أن أنتبه؛ فسألتني:

– لماذا تعطيه؟
– أنا أساعده فحسب.
– ثمة فرق بين أن تعطي المتسول، وبين أن تساعده.
– لا يهم، المهم أن أعمل الخير متى ما سنحت لي الفرصة بذلك.
– ولماذا لا يعمل؟
– وما أدراك بأنه لا يفعل ذلك.

- هل فهمت أنني أسأل عن الخير؟!
- أجل.
- لو كان كما تعتقد لما كان هنا.
- لا أعتقد بأنني سأشغل نفسي بذلك، المهم ما أعمله أنا.
- تعبد أفكارك!
- أنا... أعبد الله.
- غبي.
- من؟؟
- لا يهم.

ودخلنا...

9

كانت هي الآخر ككل لا يتجزأ، والآخر هو الضوء الذي نكتشف به المجهول بداخلنا، لنعرف أين نحن، وإلى أين نتجه، فقد كان لتلك الفتاة ضوء كثيف أنار أولى زواياي بتطرف فلم أعد أرى.

- النور يعمي إن جاء ساطعًا.
- والكثير من قناعاتنا كذلك.
- يعمي؟
- وهل ترى حياتكم المتأخرة إلا كذلك؟
- لم أطرح هذا السؤال على نفسي لأجد له من إجابة.
- برأيك.. ما يقوم به الشباب من العبث بأجسادهم.. وكيف

يحولون الحياة إلى أشلاء.. أليس هذا دليلًا على النور الذي يعمي؟!
– ما الفرق إذن بين كل الطرق إن كانت تؤدي إلى العمى؟!
– ربما.. ولكن العمى يصيب العيون حين ينعدم النور مطلقًا عنها، وأيضًا حين يتحول النور إلى وجود مطلق؛ فهذا هو العمى الذي يصيب البصيرة.
– وما الفرق إذن؟
– كلاهما عمى لا فرق.. ولكن درجة الألم هي الفرق.
– وكيف يكون ذلك برأيك؟
– في الوجه الأول.. تفقد قسمات من تحب فلا تنطوي الذاكرة على لمحة منها؛ لأن العين لا تراه، وفي الوجه الآخر.. تجمع أشلاء من تحب ليقطن الذاكرة ألم لا يسكن أبدًا؛ لأن الحواس هنا تحضر بكثافة.
– الفرق لا يكاد يتضح.
– لكنه موجود، ويمكنك أن تشعر به.
– متى؟
– حين تجمع أشلاء من تحب بصمت.

أخذتني تلك الكلمات كما تأخذ الصفعة من متلقيها عادة؛ فلم أتقبلها من الداخل بشكل يليق بطبيعتها ككلمات، وإنما لجأت لشيء ورثته – وما زلت أمتلكه– يجعلني أرفض أن أتلقى كلمات كهذه من فتاة لليل عابر ورخيص.

ارتبك المشهد برمته...

10

لم نكتشف ماهية ما نحتاج إليه، ولا كيف لنا أن نتبادل الجوع المزمن بكلينا لنمتلئ، اتجهنا لبعضنا لليلة كاملة فحسب، اقتربنا أكثر من معادلة الضوء تلك، كان الحديث عنها صوريًا، ولم نشعر بالانكسار قد حدث، كان لسطوع الضوء امتدادٌ يتجاوز مسافة الحدس، فلانكسار الضوء سمة فريدة تجعل منه أكثر تنوعًا، وكذلك نحن! تخالفت ملامحنا وافترقنا، وذات الجوع لم ينتهِ أيضًا، وإنما اشتد المجهول فيما بيننا فاتسعت دائرة العمى بشكل مغرٍ، أعترف الآن: بأننا لم نفترق لنلتقي، وإنما كان انصهارنا ببعضنا يحمل تيه المسافات التي لم تنته في حياتنا المترامية الحدود، فقط حين نغترب نقترب؛ لدرجة أننا أصبحنا وجهي العملة الواحدة.

11

- وبعدين؟ يبدو أنك تبحث عن الكلام، وبالك طويل!
- ليس كذلك تمامًا.
- إذن ماذا؟
- حسنًا... هل لي أن...؟

قاطعتني بصوت يملؤه الغنج...

- أن ماذا؟

– أن أكون على حريتي.

كان هذا جوابي عن سؤالها؛ ليكتمل المشهد الذي بدأ يتشكّل في تلك اللحظات، كأن الحوار فيما بيننا أصبح يرمي لمسافة تبتعد عن حدود الحروف التي نتفوه بها، لكننا كنا نعرف – أنا وإياها– أين مرمى سهامنا؛ فلا نحتاج لمزيد من التأويل والتفسير لما نقوله، ربما لأننا لا نملك الزمن.

– ما سوف تدفعه يا عزيزي هو ما يقرر حدود حريتك معي.

ضحكت لجوابها!!

12

كيف يمكن لكلمات عابرة أن تنكأ جروحًا أعمق من أن تُحس، ترى ما الذي تعرفه هذه الفتاة عن الثمن الحقيقي للحرية؟ وهل من الممكن لمثلي أن يقرر حدود حريته حتى على مستوى خطيئته التي يكتمها ليل مجهول دون أن يكتشف؟ أجبتها دون أن أعي سبب ثورتي؟ وليس في ذلك من جديد في ثقافة من أتى من تلك البلاد الجافة؛ لأن مفهوم الثورة هناك لا يرتبط بتفاصيل الزمان والمكان والعقل، أصبت بحالة من الهيجان ولم أفكر للحظة؛ ما إذا كان جوابها سببًا حقيقيًا يستدعي كل ذلك أم لا؟ وربما كان السبب وراء كل ذلك هو أنني من الفئة التي تحسب كل صيحة عليها؟

– جميل أن الحرية تتشكّل بمقدار أموالنا كما ترين، أو كما يخدم مصالحك في نهاية المطاف، لكن هل هذا كل شيء؟

– لا أسعى لأخذ شيء لا أستحقه.

– ولو افترضنا أنك حققتِ ما تسعين إليه؛ فما الإنجاز العظيم الذي أحققه هنا لمجرد أنني أقرر لأول مرة في حياتي حدود حريتي بما أملك في جيبي وليس في قلبي؟

– يبدو أنك تبحث عن العواطف كغيرك من أبناء جلدتك؟

– لا... لا أبحث عن العواطف؛ ولكن لماذا تسألين سؤالًا كهذا؟

– لأنك تحدثت عما في قلبك ثمنًا لتلك الحرية، وليس في القلب إلا العاطفة.. أليس كذلك؟

– القلب يضم العاطفة؛ لكنّه يضم الدماء أيضًا، وهذا ما عنيته!

– كل ذلك في النهاية ثمن.

تحدثتْ إليّ نفسي قليلًا حين ذهبت لاستبدال ملابسها في دورة المياه، هربت من المواجهة بهذا الحديث لأرمي على نفسي شعورًا كاذبًا بالذكاء، كنت على يقين بأنها أيقنت ما أرمي إليه؛ فأرادت الهروب لغير جهة؛ عسى ما تبقى من الوقت يسعفها بالحصول على ما خرجت من أجل التقاطه ليلا، فـ«قطط الليل» عادة ما تخرج من سراديبها المظلمة لتلتقط رزقها بعرض ما تملكه من مفاتن على كل مشترٍ يعبر ليل هذه المدينة الباهتة؛ فأعددت نفسي لسؤال جديد أردت منه حصارها:

– ما حجم حريتي الذي يرضيك؟

– يبدو أنك عنيد وحديثك لا ينتهي.. دعك من ذلك؛ فليلنا طويل وربما نكمل ذلك فيما بعد.

– إذن تجرّدي.

– لا... عليك أن تفعلَ ذلك بنفسك.

– ألم تقولي إن حدود حريتي يقرّرها ما سوف أدفعه؟ لِمَ تجعلينها محاطة بـ«لا» قبل الشروع فيما اجتمعنا من أجله – أنا وأنت– هنا؟

– أولًا.. لم تنطق بكلمة واحدة عن الثمن، ثم لِم تجعلُ من الـ«لا» أسرًا لحريتك أصلًا؟ هل أنتَ من الذين يتخيلون أن الحرية هي أن تخلو حياتهم من الـ«لا»؟

يا لذلك الليل الغريب!! تقاسمُني إياه فتاة لا تعرف كم تمتلئ أيامنا منذ الصباح الباكر حتى أنفاس الحلم بأشكال الأمر والنهي و بـ ...!

13

حياتنا القسر التي نقطع طريق شقائها وسط هذا الزحام المخيف من اللا وعي والأسر في زنازين لا تنتهي حدودها بقضبان حديدية، إنما بالكثير من الشروط التي تسرق من عقولنا هويتها الحقيقية وتمنع انسياب نموّها لتصبح معطلة عن أداء مهامها الطبيعية في تقييم تجاربنا في الحياة، تلك المكتنزة بشبح الخطيئة الذي يطاردنا – نحن فقط – منذ آدم، ولا يطارد غيرنا.

هي حياتنا – أيضًا – تلك التي تخلو من الخيار بين متناقضاتها، وتفتقر لمفهوم الشراكة والسلام والتعايش بهدوء؛ نتيجة الخوف من أن كل ذلك خروج صريح عن الملة وحياة

الأوائل، الذين غيروا وجه الدنيا بما وضعوه من نظم وقوانين!!!
دفعنا من الثمن نتيجة لذلك ما يفوق خروجنا عن ألف ملة، دون أن نجد الأثر لتلك العظمة التي يجبروننا على أن نحفظها عن ظهر قلب في المساجد والمدارس، قافزين على حقائق الواقع المشاهد الذي يقرر فيه إلظلام مصير النور، والسالب كذلك يقرر مصير الموجب، يقود دفة العقل مجموعة من الجهلة والحمقى والأغبياء لترتدي أيامنا المتأخرة ثوب الجنون بعد أن تأكد فصل واقعها ما بين خيال مثالي يحلّق في سماء بلا حدود، وسقوط في وادٍ سحيق من المادية البحتة والسواد الفكري، الذي خيّم بأمر مزور من وكلاء الدين، وقد وضعوا ختم الله المسروق على أحاديثهم الرثة تلك، فأصبح واقع هذه الصحاري مذهولًا بمنطق خارج عن المألوف والطبيعة الإنسانية الفطرية، وأصبح الخذلان وعدم الثقة هما القاسم المشترك بين أعضاء هذا الجيل.

– هيييه.. أين وصلت؟
– شردت قليلًا بهذه المدينة التي أعادتني لمقال كنت قد كتبته ذات يوم؛ فمُنِع بأمر رئيس التحرير من النشر... لكن لا عليكِ.. ما زلت هنا.
– عرفت بأنك صحافي؛ فلا تحتاج لأن تقول لي ذلك، فكل الرجال رجال، كونك صحافيًا أو أي شيء آخر.. كلانا ينشد شيئًا يملكه الآخر مقابل ما يقدمه.
– لم أقصد أن أقول لكِ وظيفتي، فلعله ليس من صالحي أيضًا.
– التقيت الكثير من زملائك ممن يعملون بالصحافة؛ أنتم –أيضًا– تمارسون شيئًا شبيهًا بما نمارسه.. أليس كذلك؟ ها ها ها...
– ربما..؟! ولكن لماذا ضحكتِ؟

– لأننا – أنا وأنت– نشبه بعضنا.. لا فرق.

– كلنا أبناء آدم وحواء.

– تعرف ما أقصد.. فلا تهرب.

– إلى أين أهرب إن كنت شردت بشيء؛ فخلقتِ من القصص والروايات الشيء الكثير.

– أنا أشك في أنك لم تذهب إلا قليلًا، أعتقد أنك لم تكن هنا أصلًا؛ لذلك ليلتي لن تمر كما هو المعتاد.

– لا.. ولكن أخذني لوهلة – أيضًا – أننا نعي حجم علاقتنا ببعض الأشياء في حياتنا بعد أن نفارقها.

– أهذا غزل منك؟

– بمن؟

– بي طبعًا!

– لعله كذلك.

تخدعنا المرأة بمشهد الفهم الذي تصطنعه حين نقول ما لا تريد سماعه، فالمرأة تكذب – أيضًا – وتغفر ذلك لنفسها؛ حين يصبح هدفها الحصول على ما تريد، خصوصًا إن كان ذلك الهدف رجلًا؛ لذلك تخلق فرصة الحصول عليه دون اشتراط وجود المعطيات التي تجعل من عملية الخلق تلك عملية طبيعية.

لقد فهمتُ تلك المناورة الذكية التي قامت بها، وقد أضحكتني قسرًا دون أن أرغب في ذلك، كيف أن المرأة هي مخلوق يتقن الأدوار المسرحية في كواليس الحياة، وربما من هذه الزاوية ارتكب آدم خطيئته حين صدّق فكرة أن المرأة مخلوق ضعيف!!

فهذا هو المخلوق الضعيف، يتقن المناورة بشكل شجاع؛ ليلوي

عنق الأحداث؛ فتصبح كل النتائج في صالحه، لم أتوقع أن ضعفها قد يبتز حزني لأقرّ بأنني أتغزل بها، وإلا سأكون قد ارتكبت حماقة كبرى في تعاملي مع هذا المخلوق الزجاجي «أهذا غزل منك؟؟» ترى بأية طريقة ستطرح – هي– هذا السؤال على من تحب، خصوصًا أن المرأة في شك دائم في مكانتها في قلب الرجل، وكل الأدلة التي يقدمها لا تثبت براءته بأن تلغي الشك؛ وإنما تؤجله فحسب؟

– فيمَ سرحت؟

– فقط خرجت بسبب وعدت بألف سبب.

– لم أفهم.

– لا يهم ، ألمْ تلتقي من قبل برجل ليس لتعبه من نوافذ؟

– يا الله.. ما حكاية النوافذ اليوم؟! أرجوك لننتهي مما جئنا من أجله إلى هنا و«بلاش فلسفة آخر هذا الليل»!!

شعرت بذنب دون أن أعرف خطيئتي، وهذه الفتاة؛ لعلني أسرق من وقتها ما ليس له قيمة في حياتي ككائن تجري في عروقه دماء النفط والوفرة والثراء الفاحش! ولكن لجغرافيا الروح أروقة ضيقة وأبوابًا مغلقة؛ لا يمكن لعابر مثلها أن يعرف كيف يفتح أقفالها.

14

أذكر كيف تخلل تلك اللحظات صمت مفاجئ؛ ليدور حوار ما بين أعمق نقطتين في عينينا، لكن بلغة مبهمة! فاستأنفت الحديث:

– حسن.. ما الثمن الذي تطلبين؟

– ما برأيك أنت؟

– لا يهم.. سأعطيك ما تطلبين.

– انتبه لما تقول!! أنا ما كنت هنا لكي تعطيني ما أطلبه؛ لأنني لست كذلك المتسول الذي ساعدته برأيك ومن هم على شاكلتك.

– شاكلتي؟!

– نعم.. شاكلتك من الذين يعتقدون أنهم يتصدقون على الحياة بما يملكون.

أصبح الحوار فجأة على هذا النحو الذي دار فيما بيننا، شيء ما جعله أكثر حدة عما قبل، كأنني مسست شيئًا موجعًا؛ فاستعدت هدوءًا كان المكان قد افتقده:

– أنا لم أقصد إهانتكِ فيما قلت قط؛ ولكنني فقط لا أحترمُ فكرة التفاوض كأنني في سوق.

– لا.. إنه سوق، وأرجوك.. هل لك أن تتشجع وتبدأ...

– بالتفاوض... أم بماذا؟

قلت ذلك ضاحكًا، فكان جوابها أكثر رغبة.

– تعرف ما الذي كنت قصدته، فلا تكن غبيًا!!

– لست غبيًا ، فقط رأيتُ بوجهك ما لم أكن قد رأيته من قبل.

– وما الذي رأيته؟

– رأيت أن وجهك دون ابتسامته... غربة!

– المجنون من يشك للحظة بأنك لست كذلك.

– وهل يمر بحياتك الكثير من المجانين مثلي؟

– حياتي يملؤها المجانين والصحافيون المجانين أيضًا، وليس لي من هروب. لكن ليسوا متشابهين في العادة، ولأنك نموذج مختلف عن سابقيه؛ أرى أنك لم تبقِ في رأسي حتى رائحة السُكْر بعد ليلة كاملة من الشرب!! وقد فتحت الأبواب التي أهرب من فتحات أقفالها، المهم أن خطى الحياة حثيثة، وما إن نتوقف لالتقاط نفس؛ نكتشف أن الكثير من الأشياء التي غادرت لا تعود؛ وما بقي منها في الذاكرة سوى أوثان تحاكي مجسمات شخوصها، إن قطار الحياة... لا ينتظر! وليس لي أن أتخاذل في الحفاظ على هذه الليلة المجنونة لأتنازل لأحاديث مجنونة كالتي تهذي بها! اسكت أرجوك.

– ثمة فرق كبير بين التخاذل والتنازل!

– يا الله... ها قد عدنا من جديد... النتيجة واحدة يا سيدي.

– لكن المبدأ مختلف!

– إذن.. سترهقك النهايات ما دمت كذلك!

– ها أنت بدأت تتجردين.

– يبدو أننا نبحث عن نقيضين لهما نفس المسمى، فلماذا لا تقترب لتنهي ما أتينا من أجله فعلًا، أم إنك تنتظر أن آتي إليك؟ دعك من التهيؤات، هيا...

– قد لا أحتاج إلى أن أقترب لكي أقوم بذلك، وبرغم كل شيء؛ فأنا أتنازل لكِ لكي تقومي أنتِ بما تشائين.

– تنازل.. ولكن إياك أن تتخاذل؟

– وما الفرق؟

– لن تفهمه، ولكن فقط أريدك أن تفهم أن يدك ستجعلك تشعر بما تفعل «فخلصنا الله يحميك».

– لقد تجردتِ بالفعل.

– توقعتك أذكى من ذلك بكثير، ألم تنتبه لذلك من قبل؟

– لا.. بل كنت بغاية الانتباه، لكن فقط أردتك أن تشعري!!

– بماذا؟

– لا يهم.

– هل تنوي الانقلاب عليّ بأن تعيد عليّ إجاباتي؟

– لعل الآن جاء دوري لأن أعيد ذات الإجابة التي قلتها لي حين دخلنا إلى هنا.. هل تذكرين...؟

15

كانت إجابتي تلك مفتاحًا للكثير من الخزائن لديها، وصدى ضحكتها قد بلغ من التجرد أكثر من رغبة ليلها المجنون، هذه الفتاة تحتفظ ببقايا عطش قديم!!

– غلبتني يا كلب، ولكن ماذا بالنسبة لك؟

– بالنسبة لي!!

– حول ماذا؟ ألن تقترب؟

– سأفعل.

– متى؟

– متى ما أردتُ أنا.. ألستُ حرًا كما تقولين؟

– بلى.. لكن كما يبدو.. أنت لا ترغب في الاكتشاف؟

– أعشقه.. ولكن بطريقتي الهادئة.

– لماذا؟

– لأشعر به أيضًا.

– لا شك أنك تتقن المناورة جيدًا، ولم أفهم كيف يمكنك أن تمتلك كل ذلك دون أن أنتبه؟

– فقط لأنكِ لم تحاولي أن تكتشفي عالمي، أنتن تكتفين بمعرفتكن المتوارثة من ليلكن الداكن هنا، حين أجد نفسي وأمثالي أسرى إطار خشبي محطم كان الزمن قد أرهقه، صورتنا لديكم لا تتغير، نبقى مذنبين حتى إن ثبتت براءتنا.

– هل أغضبك ما قلته قبل قليل؟

– أبدًا.. فقط نكأت الجرح، ولا يعني الألم في كل الأحيان الغضب.

– حقاً إن قلبك أسود لم تنس ما قلت، ولم تقله، المهم.. المهم أنا أعتذر.. لم أقصدك أنت، وليس على السكران حرج.. أليس كذلك؟!

– ربما! ولكن من كنت تقصدين؟

– أرجوك.. لنبتعد قليلا عن تلك الأجواء، أنا لم أقصد إلا هذه الحياة المومس، كم هو طويل ليل شعرها؟!

– حسن لننسى إذن.

– قلبك أسود.

– ....

لم أردّ على ما قالته، ولكن رأيت بعينيها بريقًا ساطعًا، هي المرأة مرة أخرى؛ تجد لك في قاموس أحاسيسها النزقة.. وصفًا يليق بمقام ذنبك كونك رجلا وحاجتها كونها امرأة؛ فتشعر بأن

رجلا لا يكون أحمقا في تعامله مع المرأة ببساطة: ليس برجل ولكنه نبي!!!

آنذاك تُحوّل الحواس عن عملها الحقيقي من وسيلة إلى غاية بحد ذاتها، ارتبكت العيون بحجم هدفها؛ فوجدت كل شيء بها وقد أصبح هدفًا جميلًا، تعبر بي لذته أسوار زمن من الظلام، وكنتُ هناك بين الخبايا والتفاصيل، لأقترف الكتابة على أوراق جسدك البعيد.

كان هناك...

16

وأنا هنا أحاول الاقتراب بقدر الـ» هنا « التي أشعر بها، لدرجة تفوق الاعتراف إليك، كغيري من المخدرين هنا الذين يحملون بقدر ما أحمل من حاجة للاعتراف إلى غير إياب، الاعتراف بلغة بسيطة فقط تشبه الحرية البكر التي لم تطأ أدوات النهي والنفي الجزم والاختصار، كم نشبه بعضنا ها هنا أو ها هناك؟!!

– إلامَ تنظر؟
– لكل شيء.
– بدأت أشك برجولتك!

ليس من شيء يحول المرأة في ليل الرجل إلى نمر جريح كالامتناع عنها إن أرادت ذلك!

– لماذا؟
– لم أجد بك العطش الذي قد تتركه صحراء كصحراء بلدك.
– ألست قاحلًا؟
– في عيونك خصبٌ كثير.
– نبوءتك في ذلك لم تصب.
– لماذا؟
– أنا أكثر عطشًا من سراب.
– لم تجرؤ على الاقتراب!
– إن جعلني العطش أقترب، فلست حرًا.
– ألم تشترِ ماءك؟!
– بلى!
– إذن أنت لا تريد لعطشك أن ينتهي.
– لماذا؟
– لأنك لا تشعر به فقط!
– أنا أخشى الاقتراب.
– إذن لست حرًا يا عزيزي! وهنا يكمن الاغتراب.
– تعودت عليه.
– تعودت ألا تجرب.
– تجردكِ يخيف.
– تجردي أم عريي؟
– كلاهما.
– أغريك بالاقتراب، لعلك تجرؤ؟
– لا فلن أفعل.
– أتخشى ؟ أم تخجل؟
– لا هذا ولا ذاك.

– إذن؟

– بحاجة لأن أبحث عن إجابة تفي بغرضك.

– وغرضك؟

– غرضي لا يهم.

– أو تعرف أن مكمن دائكم ليس في الآخر، الذي يحاول أن يبحث عن الشبهة في كل ما تقومون به من سلوك، إنما في أنفسكم فقط، فما إن تجلسوا مع أنفسكم جلسة عريّ حتى تتحول كل إشكالاتكم إلى لا شيء، إلا أن امتداداتكم في الآخر تمنعكم من التمركز حول ذواتكم؛ لذلك تفاجئون بأن قلوبكم بلا نواة، كم أنتم بأمس الحاجة للحديث مع أنفسكم بوضوح وطمأنينة لتخلقوا حريتكم ويتشكّل وجهها!!

– نخشى أن نتعرّى حتى إن أغلقنا على أنفسنا غرف نومنا؛ لذلك فإن لحريتنا وجهًا لا يبتسم.

– ليست الابتسامة عنوان الوجود الحقيقي، فأحيانًا كثيرة لا تضطر لأن تبتسم في وجه أحبتك؛ لأنك تشعر بجروحك آنذاك، وبرغم ذلك تكون محبتهم.

– لوهلة اعتقدت بأنني قد اقتربت منكِ كما يجب!

– بل بالعكس.. أنت قد اغتربت، وثمة مسافة شاسعة بين الحدثين، وما هذه المسافة إلا جزء من خبايا الأمور، التي تحتاج لفراسة أكبر من حجم رجالها لمعرفتها.

– أووف! ليتك تعلمين كم هو حجم الفراغ الإنساني في حياتنا، وكم هو مخيف ذلك المستقبل الذي تنتظره أيامنا، ليس من شيء في تلك البقعة التي أرهقتها الشيخوخة والظمأ إلا الخوف من كل شيء: الماضي أن يعود والمستقبل، الذي قد لا يأتي بالخلاص، وربما إن أتى يأتي بنار ملتهبة تحرق أطفالنا ومتاعنا وأفراحنا المغتصبة أصلًا، لذلك؛ فحاضرنا يملؤه القلق.

– ما هذا الحزن المفاجئ؟!! دعك من كل هذا؛ فكلنا لدينا جحيمنا الخاص، وما شعورك هذا إلا فراغ طبيعي لعدم وجود امرأة بحياتك، اقترب وستجد أن الفراغ الذي تشعر به محض كذب، ستشعر بي عندما تشعر بنفسك.

– هل طلبك هو سوء فهم أم ماذا؟

– بل هو دعوة للهروب، وأردتك أن تخرج عن دائرة الامتناع هذه التي تفرضها حول نفسك، ولا تحرك ساكنًا من أجل أن تغيّر واقعك هنا، كأنها التجربة الأولى التي تجمعك بامرأة في مكان مغلق.

– في أكبر حظيرة للرجال قد يحدث ذلك مصادفة، هربت من بلدي فوجدته يستقبلني في صالة المطار.

– تخيّل نفسك تستقل مصعدًا كهربائيًا لا تنتظر منه الوصول إلى طابق محدد، وتجمعك رحلتك بامرأة تبحث عن رجولتك؛ فما الفرق؟

– هل المسألة بهذه البساطة؟!

– أنا أعتقد أنها بهذه البساطة؛ لكن على الأقل تخيّلها كذلك.

– لا يا سيدتي.. فمهما تشابهت التفاصيل؛ فالموقفان مختلفان، ولن يكونا موقفًا واحدًا.

– قلت لك تخيل.. تخيل.. يبدو أنك رجل أشد عجزًا عن أن يتخيل حتى!!

– إذن ستطفئين كل نجم في سماء ليلك الداكن هذا؛ لأن اجتماع كل امرأة ورجل في مكان ما في بلدي؛ يعني أن رجل دين ينتظر في آخر الطريق للقصاص، دون أن يتحمل مشقة معرفة هوية هذه المرأة؛ لأن دائرة الشك هناك أكبر من أن يُعرف قُطرها.

– وهل هنا من أحد غيرنا؟!!

– لا.. ليس هناك من أحد.. ولكنني أخشى التجربة خوف أن

استمرئ الفشل إن تكرر؛ لأن مخاوفي تأبى تركي لألتقط قدري.

– من منكما يسكن الآخر يا ترى؟!

– أشعر بنفسي إن التقيته داخلي، وأخشاه بقدر فقده؟

– وأنا؟!

– أنت هنا.

لم أكن أعرف المكان الذي أشرت له بتلك الـ «هنا»

– وأنت؟

– نسيت... هنا.

– لم أفهم!

17

كم تتمتع تلك الوجوه بقسمات الجفاف، يأخذني قلق من المكان الذي أرحل إليه، لأكتشف به الهروب القديم، الذي جئت به حاملًا ملامح سمرة لا يمحوها زمن الظل والزجاج ومدن السليكون تلك، يأخذني القلق مأخذًا صعبًا حتى يصل بي إلى ما هو أبعد من تضاريس الوجود الحقيقي؛ لأنه هنا في الداخل البعيد من جسدي ليس له من أسباب، ولأنه كذلك؛ فإنه لا ينتهي أبدًا!!

كم نسافر بعيدًا، ليس لشيء.. فقط لنفزع قبرة السكينة في قلب الإنسان منا بضجيج الاغترابات، والتجربة.. ونكمل:

- يبدو أننا لن ننتهي هذه الليلة من ألمنا؟!
- وهل لألمنا من سبب لينتهي أصلًا؟
- ربما!
- إن حياتنا تمتلئ بالأصنام والجثث، التي نختلق لوجودها بنا ألف سبب، لذلك؛ فإن حياتنا ليست رائعة.
- دعك من هذا الهراء؛ علينا أن نتجه للتجربة لنحسم الأمر؛ لأن زمننا آنذاك سيرفع حاجبيه لترى حقيقته إلى أين تهاجر أسرابها.
- كم تشبهين بلادي؟!
- بأي شيء؟
- بالوجود.
- ماذا تقصد؟
- لا يهم.. لكن ألا تخشين من أنك قد تنجبين ذات يوم بسبب ما تفعلين؟
- أخشى؟! إطلاقًا .. بل أرغب.
- لماذا؟
- لأنني لن أسمح لنفسي بالامتداد.
- أليس بالامتداد يكمن الخير؟!
- ما الامتداد إلا اغتراب أعمى، قد يخلق منك إنسانًا هاربًا بلا هدف، وخائفًا من وهمه الذي صنعه بيديه تحت بند الخير، كل الخير في أننا نزيد مما نعتقد بأنه خير لنختنق بعد ذلك بما صنعناه من دخان.
- كيف يكون ذلك؟
- ألا تعرف أن الأفراح أحيانًا تصبح مؤلمة.. العطر حين تزداد كثافته يخنق!!
- لم أكن أعرف.
- يبدو أن ثمة أمورًا كثيرة ليس عليكَ مهمة معرفتها أصلًا..

وها أنت لا تعرف أيضاً أنك قد أفسدت ليلة عمل بالنسبة لي، وقد شارف الليل على النهاية.

– ستنتظرين.. أليس كذلك؟!

– بلى.. لكن حين يكتمل قرص الشمس سأرحل.

– لماذا؟

– لأن يومي يكون بالفعل قد انتهى، وعليّ أن أستعد للغد لأعوض عن خسارتي.

– وهل تعملين؟

– وما الذي أفعله هنا برأيك؟ أم إنك تعتقد أنني سأسمح لنفسي بأن أقف على الأبواب وأمد يدي؟

– لا.. لا أعتقد ذلك.. لكن ظننت أنكِ معي.

– أنا هنا ولست معك.

– وما الفرق بينهما؟

– ألم أقل لك إن ثمة أمورًا ليس عليك مهمة معرفتها، الفرق بين أن أكون معك وأن أكون هنا كبير جدًا!!

– هل تسخرين مني؟

– أنا لست بتلك المرتبة أصلًا لأسخر منك.. لكنني لا أمتدحك أيضًا.

– وستذهبين؟

– ولمن أبقى؟

– سأعطيكِ أجرة يومك.

– وهل تعتقد بأنني أتسول؟

– لا.. لكنني أضعت لك يومك بحديث مجنون.

– حياتي يملؤها المجانين.. لا تخشى علي؛ لأنني كنت أكثر امتدادًا من أن تقترب، صباحك يشبهك.. إلى لقاء ما!!

..... وابتعدت، لكنكِ ما زلت هنا، تختصرين زمني كوني رجلًا، أليست المرأة وحدها من تفعل ذلك؟ التقينا عند مفترق طرق؛ فكان كل منا للآخر آخر يوقظ وعيه من خدره، واكتشفنا أن المسافة أكثر عمقًا من الامتداد، وأن الاقتراب أكثر تمركزًا من نقطة التماس،،، وانتهى كل شيء!

18

– إنها الحياة.

صوتها.. جميل، تحتفظ مسامعي بسلمه الموسيقي، ولم تبتعد حتى حين تجاوزتُ باب الطائرة؛ متجهًا إلى مقعدي بالقرب من النافذة، حين جلست كانت هناك... ذاكرتي الساقطة، فالتقطتها دون أن أنتبه إن كانت مبعثرة، حاولت أن أبتعد أكثر عبر النافذة، بعد أن شعرت بملح عيني يزداد ضراوةً وحدةً، عساني ألتقط من سقط هذه المدينة دمية أتسلى بها في مسافة عودتي إلى بلدي الجاف، الذي برغم المسافة الطويلة التي تفصلني عنه؛ أشعر بأنني أنتمي إليه بالظمأ الشديد.

– كم نحن بحاجة إلى ماء أيها الشيخ العجوز!

ولأن الموقف كان مبعثرًا برمته ما بين ذاكرتي وبين وَعْيي بمن حولي؛ قررت الرحيل قبل أن تقلع الطائرة عائدة مرة أخرى؛ لأن الشعور بالاقتراب يصبح مخيفًا في أحيان كثيرة، فأغلقت

النافذة بعد أن شعرت بأنني قد اقتربت كثيرًا.

جاءني صوتها البكر رافضًا النهاية،،،

– سيكون هناك متسع لأمنحك دفء جسدي...!

وكان صوتي المبهم يزداد غموضًا وتقهقرًا في تجاويف حزني الداخلية.. بعد أن أدمن نهايته متأخرًا..

– الآن... أنا لا أحتاج إلا لذات الشتاء الهارب.. ومن ثم لدفئك!

19

اللحن الجنائزي في الطائرة يحشد صور الذاكرة بلا ألوان تمنحها واقعًا قريبًا؛ لأن العمق الحقيقي لا يُكتشف بغير لونيّ الحياة الأساسيين، الضوء والظلام، الأبيض والأسود، حتى إن حاولت المخيلة التقاط فرشاة الوهم لتنثر بعض الأصباغ الكاذبة على أوراق المكان لتقترب الحقيقة، ويتسع إطار النافذة للحياة. يأتي صوت قطرات الماء التي تنهمر بفعل الرطوبة التي اختلطت برياح الصيف في الخارج، فترتبك الحواس كلما ازداد الصوت بزيادة انهمار الماء على جسد الطائرة البارد؛ فأشعر به كأنه يرتجف، أشعر بهذه الرياح ترشق الذاكرة عن بعد ببعض الدفء والأفكار؛ لتلهو بها كما كنا نلهو ببكور الوسم صغارًا بعد فصل من القحط واللهيب؛ فتسترق الأفكار النظر لمفاتن بعضها، ويفوح

من الرمال الساخنة عطر النماء والخصب. أعيد غلق نافذة الطائرة بإرادة حرة لم أمتلكها يومًا، وليس لمفردات المكان إلى فتحها من سبيل، كأن الزمن – وقوفًا بها – لا يحرك سواكن حزننا؛ فتسرقنا المسافة ويسقطنا المكان في زحمة القلق والأسئلة؛ لأنني كنت غارقًا آنذاك، لم أكن أنتظر البلل... ينعشها!

أقلعت الطائرة....

ذاكرتي في السماء الآن تشكّل وجهك لا أكثر أمام هذا الجفاف المخيف، تحمل منك ما شاءت من تفاصيل تداخلت في تلك الليلة، لربما التقينا بجزء مما كان قد ضاع منا في أزقة الحياة وسط اختناقات شوارع الألم؛ فنعود – أنا وأنت – بكل ذلك إلى انتظارنا الممل. لم تكن بي رغبة لأعيد على مسامعي كلمتك الأخيرة؛ لأن ما نتفوه به عند مفترق الطرق يحدد لون الغياب!!

– إياك أن تضع عواطفك في غير مكانها فيطالها الكثير من الغبار!!

صوتك جاء من داخلي، لم أستطع أن أتفاداه، فأسدلت الستائر على شارع التحلية الذي أخذت الشمس تحرق امتداده، وبقي امتداد ذاكرتي يلتهب تحت شمس الحضور الحثيث!!

انتهى،،،

صدر عن الدار

العنوان	النوع	المؤلف
تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قصلة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كمامي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الملطا	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الآخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
آلة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القططط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية في الكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
موسم الفراشات الحزين	رواية	اسامة حبشي
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى د. محمد سعيد حسب النبي
مع ملائكة مكّة	رحلات	سعيد البادي
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت



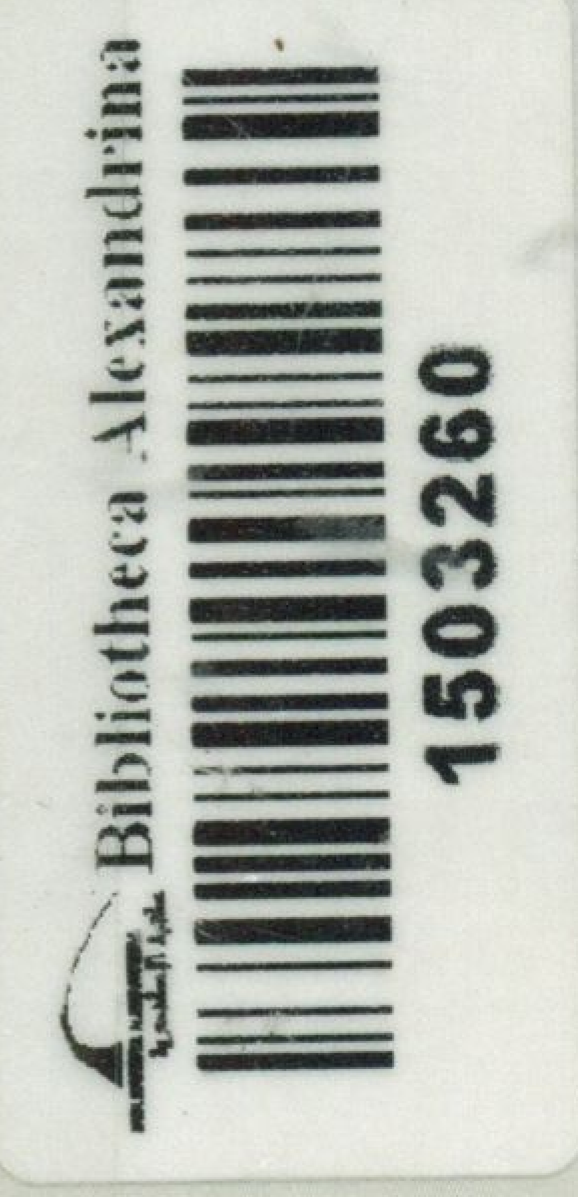
قيد الإصدار

صعود ليبرمان	تحليل	أكرم ألفي
عيّل بيصطاد الحواديت	كتاب شعري	مجدي الجابري
حرب بلا نهاية	سياسة	رالف بيتر
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين
مرآة الشرق	تاريخ	مجموعة باحثين
الضريح	رواية	كرم صابر

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

وهدأ وشم أقدامهم على رمال البؤس الساخنة تلك، ولم يعد السير ارتجالاً بين بيوت الصفيح. الوهم بدأ صيرورته، وأمست حقائق الأرض في عزلة مطلقة عن الحواس. لأنها آنذاك كانت غير قادرة على خلق علاقة شرعية بمفردة واحدة من مفردات الحياة على الأقل. وما إن أسدل الله على شبه الحياة هناك ستائر ليل بهيم، حتى بعدت المسافة اللازمة للخلق، فجاء الناتج الزمني المفترض لا يحمل صفة الجمال إلا سفاحاً. ولذلك فإنه لن يقبل حركة الساكن، مادام هو الابن غير الشرعي. هناك لا شيء يغسل جنابة الفراغ أكثر من هروب أبدي، لذلك فإن الناس يوقفون الحياة في الضفة الأخرى. ولا يتركون لها وسيلة العبور إلى جهتهم، لتكون بقدر وقوفها المستمر في طرف ممر الأحداث المملة، أكثر فتنة وجمالاً.... فرفعوا صوت بكائياتهم عاليا.

Image by:Internet-Cover design by: Ali Al-Sumayin





www.sefsafa.com